القلم والمشرط
بقلم د. أحمد الوحش

القلم والمشرط

المقدمة

كنت أكتب؛ لأنني أحب الكتابة، وأؤمن بما أكتبه، لكن منذ ما يقرب من العامين رُزِقتُ بابنتي الغالية "لينا" -حفظها الله- فأصبحت أكتب مقالاتي كرسائل لها في كلِّ عددٍ صحيفة أنشر بها، وفي كل موقعٍ، وكل كتابٍ يحمل اسمي، وكل ورقة أكتب فيها، إنني أحتفظ لها بكل شيء.

رسائل زمنية من أبٍ لابنته تحمل في طياتها مبادئي، وأهم ما قرأته وتعلمته، إنني أترك تراثًا، وإرثًا، وأثرًا تتذكرني به، حتى إن لم يعد أحد يحب القراءة في زماننا سأظل أكتب لمن تعني لي جمهوري الحقيقي؛ لعل ذلك ينير طريقها في المستقبل، وتجد فيه إجابات قد تحتاج إليها... لعلها تفتخر بأبيها، وأمها يومًا ما.

بقلم أحمد الوحش | ١٧ أغسطس ٢٠٢٥م

إهداء إلى **زوجتي وابنتي الغاليين،**
وكلُّ من ساعدني، وشجعني يومًا... شكرًا لكم.

الفهرس

رحلتي من قطار ٩٣٤ إلى قطار ١٦٣	صـ ٥
في مهنة إنقاذ الأرواح... من ينقذ المنقذين!؟	صـ ١٢
حين علمتني المناطق النائية معنى الاختلاف	صـ ١٧
طبيب المستقبل ذكاؤه اصطناعي	صـ ٢٠
ختان الإناث	صـ ٢٥
فلسفة الإصلاح والاستمرار	صـ ٢٩
سيكولوجية الشباب المعاصر	صـ ٣٥
الفجوة بين العلم والوعي أزمة الإنسان في عصر المعرفة	صـ ٣٩
رسالة زمنية	صـ ٤٣
دورك في بناء الأمة!	صـ ٣٧
رقصٌ على الأنقاض	صـ ٥٠

كأن الزواج صراع!	صـ ٥٤
صراع المستقبل وعصر الأزرار	صـ ٦١
عندما يتنفس الموت	صـ ٧٠
لو جاءنا التطور طائعًا!	صـ ٧٦
فرصة العرب الضائعة	صـ ٨٠
باعوا فلسطين كما باعوا دبابات الشاه	صـ ٨٤
الوجه الآخر للحضارة	صـ ٨٧
نهج الإبادة والتاريخ الأسود للاحتلال الصهيوني	صـ ٩١
مفاتيح الديار	صـ ٩٦
بين تحديات الأمس واليوم	صـ ١١١
هل تبكي روما من جديد؟ قراءة في تحولات السياسة الأمريكية	صـ ١١٥
البوابات الخمس للعالم الإسلامي	صـ ١٢٠
٨ قرون بين خوارزم وطهران	صـ ١٣٠

رحلتي من قطار ٩٣٤ إلى قطار ١٦٣

خلال أيام سيتسلم زملائي الأطباء تكليفهم بالوحدات الصحية، سأشارككم سطوراً اخترتها، وأعدت كتابتها من فصل "رحلتي من قطار ٩٣٤ إلى قطار ١٦٣"من مذكراتي الشخصية.

في غضون الساعة الحادية عشرة مساءاً يوم ١٨ \ ٩ \ ٢٠٢٢م انتظرت في محطة طنطا قطار ٩٣٤ الخاص المتجه من الإسكندرية إلى الأقصر، كانت وجهتي إلى المحطة قبل

الأخيرة؛ حيث ظهرت نتيجة تعديل تكليفي إلى محافظة قنا، فقررت أن أخوض تلك التجربة الجديدة.

استغرقت رحلتي قرابة ١٣ ساعة...

عندما تسلمت العمل في إحدى الوحدات الصحية بإدارة قنا الصحية كانت القوة العاملة هناك ٢٦ موظف/ة، وعاملاً، وكان هناك أحد الموظفين في أجازة لمدة ثلاثة أيام، عندما جلست على كرسي الطبيب، أو مدير الوحدة جاء الجميع يهنئونني بالمجئ إليهم بحفاوة شديدة، واشترى لي أحدهم زجاجة مياة غازية.

خلال الساعة الأولى جاء كل منهم يتحدث إليَّ على انفراد، ويشتكي من صعوبة عمله، ويقلل من عمل الآخرين، بغض النظر عن كل ذلك ما أثار التساؤل بداخلي اجتماعهم على ذم الموظف الغائب، وأنه أكثر من يفتعل المشاكل، والجميع يتجنبه، ولا أحد منهم يفضل التعامل معه، وحذرني الجميع منه.

أشارت عقارب الساعة إلى العاشرة انصرفت إحداهن بدون استئذاني، أو علمي، وبحلول الحادية صباحاً دخل إليَّ العامل قائلاً:

- "أستأذنك يا باشا، أسيبك تريح شوية أنت جاي من سفر طويل، وتصحى تعمل لك لقمة تاكلها، وأنا أروح لولادي، هقفل الباب، وهاجي لك بليل، كده كده مفيش شغل زي ما أنت شايف".

أومأت برأسي في صمتٍ، وغادر ضاحكاً...

كنت قد استلمت مفاتيح الوحدة بأكملها عندما حضرت إلى الوحدة في المرة الأولى ما عدا مفتاحي الخزينة، والصيدلية؛ لأنها من أخطر العهد، ولا يتوجب على أي طبيب تسلم مفتاحها حتى لا تقع عليه أي مسئولية قانونية تخصهما، أو بمعنى آخر لا تحمل نفسك، أو تشارك في تحمل مسئولية غيرك.

توجهت إلى غرفة هذا الموظف المنبوذ، وتسلمت سجل الحضور والانصراف حتى لا يطلع عليه أحد، ولم أتحدث مع أحد، أو أعترض على تصرفاتهم، ودخلت إلى غرفة مسئولة الأجازات؛ لأراجع أجازات الموظفين.

في اليوم التالي حدث الأمر ذاته، وغادر الموظفون قبل مواعيد العمل دون إذن، وكذلك اليوم الثالث، ومواعيد العمل من الساعة ٨ صباحاً إلى ٢ ظهراً، في اليوم الرابع، وبغضون الساعة السابعة والنصف صباحاً حضر رجلٌ نحيف لا يغادر وجهه البؤس، والحزن إلى مكتبي، فوجدني جالساً أقرأ الورد اليومي من القرآن، فابتسم، وألقى السلام، سألته عن هويته، فأجابني بالاسم الذي حذرني منه الجميع، ثم أكمل قائلاً:

- "نورتنا يا دكتور".

بهذه الكلمات المقتضبة رحب بي هذا الرجل، ثم غادر مكتبي، في الساعة التاسعة ونصف خرجت من المكتب، فوجدت ستة موظفين فقط مجتمعين في غرفة يضحكون، نظرت إلى الغرفة المقابلة، فوجدت هذا المنبوذ جالساً يضع يده على رأسه، وأمامه عدد لا نهائي من الأوراق، في غضون الساعة الحادية عشر غادر الجميع إلا هذا الموظف الذي لا يزال جالساً في مكانه

دون أي حركة، في الساعة الثالثة جاء إليَّ طالباً سجل الحضور، والانصراف؛ لأن هذا السجل عهدته.

لم يحضر أي مريض إلى الوحدة منذ استلامي العمل، وكان هذا الأمر غريباً للغاية بالنسبة لي، فاختبرته قائلاً:

- "امضِ للكل حضور، وانصراف".

نظر إليَّ هذا النحيف الخمسيني في غضب شديد، وخرج من الغرفة، فناديته قائلاً:

- "لو سمحت تعالى خد الدفتر؛ لأنه عهدتك"

عاد في حنق شديد، وأخذ الدفتر، ثم غادر دون أن يتحدث...

مرت بضع دقائق تفاجأت به عائداً إليَّ معتذراً عن غضبه، وتسرعه في الحكم على الأمور؛ لأنه اكتشف أن كل الموظفين تم الشطب عليهم في هذا اليوم، ثم أردف قائلاً:

- "يا دكتور، أنا أقدم موظف هنا، أول ما الوحدة افتتحت استلمت مفاتيحها، ناقص لي سنتين وأطلع معاش، زي ما أنت شايف صحتي على قدي، وهقابل ربنا قريب، حلمي أصلح الوحدة قبل ما أموت؛ عشان أنا ابن القرية ده، باقي الموظفين من قرى تانية، وأهل قريتي فقراء ميقدروش يكشفوا في عيادات خاصة، ومفيش دكتور ثابت في المكان، وأغلبكم من محافظات بعيدة، أو مدن بعيدة، وكل واحد يجي كام شهر، ويمشي، وطبعاً مصلحتكم إن محدش فيكم يجي، ويسيبوها زي ما هي، أنا بدعي ربنا أموت في الوحدة، وأنا بشتغل وبخدم أهل

قريتي، ومستعد أساعدك في أي شيء تحتاجني فيه طالما في صالح الناس".

ترسخت هذه الكلمات في ذهني، وتأكدت أن رفضي لزجاجة المياة الغازية، وعدم أخذ أي انطباع عن هذا الموظف، وتجاهلي لهذا المدح غير المبرر منذ اليوم الأول كان القرار الأكثر صواباً.

بعدما غادر الموظف توجهت إلى المساجد، وإلى الكنيسة؛ لأخبرهم بنشر خبر أن هناك طبيباً في الوحدة، وأن الكشف مجاني طوال ٢٤ ساعة في اليوم، مر أسبوعين على استلامي العمل، فطلبت من موظف الخزينة تذاكر اليوم، وراجعت عدد الكشوفات الصباحية، ففوجئت بأنني عالجت ٦٣ مريضاً من ٩ قرى مختلفة، لكن للأسف ١٦ مريضاً لم يتم صرف الدواء اللازم لعدم توفره.

في اليوم التالي بدأت في تسجيل ملاحظاتي عن الأمراض المنتشرة في كراسة، وعلى ذلك طلبت من الإدارة بعد مرور شهر توفير أغلب الأدوية التي تتناسب مع الأمراض المنتشرة.

على سبيل المثال كان مرض السكري، والمشاكل العصبية نتيجة لنقص فيتامين باء ١٢، والعدوى الفطرية... إلخ من الأمراض المنتشرة بين كبار السن، وحتى الشباب، وصغار السن للغاية بسبب النظام الغذائي الذي يعتمد على العسل الأسود، والكربوهيدرات، و"المش"، وتناولهم بكثرة للـ"جلاب" (القلاب) المصنوع من العسل الأسود.

لا يعني كل ذلك بالضرورة أنني كنت أعامل الموظفين بقسوة، فهذا ليس حقيقياً، لقد كنت أعمل باجتهاد؛ ليفعلوا الأمر ذاته، وطالبت الإدارة بكثير من حقوقهم، وإصلاح كل ما هو معطل في الوحدة، أو تغييره، كما كنت أشجع الموظفين على العمل بمكافآت، وفي كل مناسبة ممكنة كأعياد الميلاد، أو ترقية أحدهم كنت أشتري الحلوى، وأشتري لهم الهدايا، وأحتفل معهم، وأساعدهم بكل ما أستطيع، لم أرفض أيَّ طلبٍ لأيٍّ منهم، واستطعت خدمتهم في كثير من الأمور، باختصار يمكنك إدارة الوحدة بمبدأ واحد وهو شعرة معاوية .

زميلي العزيز، لا يقدم الهدايا، ولا يمدحك إلا منافق، أما غير المتكلف، وغير المتملق هو مفتاحك لفعل الصواب، وكثرة المخطئين لا تعني قوتهم، فرجل صالح يستطيع هزيمة جيش من الفاسدين.

في الأسبوع الأخير لي قمت بتكريم الموظفين؛ لأنهم أصبحوا ملتزمين، ولكن كان لهذا الموظف شهادة تقدير خاصة؛ لأنه الموظف المثالي الأكثر التزاماً، وقبل رحيلي بلحظات وضعت في جيبه ورقة صغيرة مطوية طلبت منه قراءتها عندما أرحل، كتبت فيها:

"أخي العزيز أستاذ محمد، إن رجلاً صالحاً يستطيع بمفرده هزيمة جيش من الفاسدين، تشرفت بالعمل معك، وسأشهد لك أمام الله أنك رجل صالح".

على الرغم من أن نيتي كانت مساعدة الناس دون مقابل حتى بعد انتهاء مواعيد العمل الرسمية، لكن في يومي الأخير زارني

كثير من الأهالي محملين بالهدايا؛ ليودعوا هذا الغريب الذي لن يروه من جديد، حتى أنني اضطررت لطلب سيارة خاصة لنقل الكراتين الكبيرة، والثقيلة من الهدايا، ودفعت لكل كرتونة غرامة بالقطار؛ لأن الصناديق، أو الكراتين يتم دفع غرامة لها، وساعدني بعض الركاب في إنزال تلك الكراتين عند وصولي إلى المحطة، واتصلت بوالدي لمقابلتي في محطة القطار بالسيارة؛ لأنني لن أستطيع حملها وحدي.

هذا الكلام لا يعني بالضرورة أنني لم أخطئ، بالتأكيد أخطأت كثيراً، ولا يعني ذلك أيضاً أن كل شيء كان يسير بشكل مثالي، بل كان هناك كثير من الأمور المفاجئة، والتي استشرت فيها أناساً كثيرين، لكن يبقى الدرس الأهم -الذي تعلمته- أن يكون لديك توازن بين العاطفة والعقل، فهناك مواقف إنسانية تحتم عليك أن تتعامل برفق، ولين؛ لتكسب قلوب الناس، ومواقف أخرى تفرض عليك أن تتعامل بكل حزم؛ لتحمي نفسك من شر المنافقين.

في نهاية المطاف كنت أعلم جيداً قبل مغادرتي للمرة الأخيرة بالقطار الروسي رقم ١٦٣ أن ريما ستعود لعادتها القديمة، لكن على الأقل أثق أن هناك رجلاً صالحاً لا يزال كل يومٍ يفتح بوابة الوحدة في الساعة السابعة والنصف، ويغلقها في تمام الساعة الثالثة عصراً.

في مهنة إنقاذ الأرواح... من ينقذ المنقذين!؟

يعمل الأطباء، وهيئة التمريض، والإسعاف، وسائر القائمين على المنظومة الصحية تحت وطأة ضغطٍ لا يلين، ضغطٍ يتولد من وعيٍ كامل بثقل الأمانة، والمسؤولية الملقاة على عواتقهم؛ فحياة الإنسان ليست رقمًا في سجل، ولا احتمالًا عابرًا، بل قيمة لا تُقدَر بثمن، وأولوية لا تقبل المساومة.

نخوض كلَّ يومٍ معركةً صامتةً ضد الزمن يفصل فيها خيط رفيع بين الحياةِ أو الموت، ونحن ندرك – بمرارة الواعين – أن حياتنا تتآكل، وأن أعمارنا تمضي أسرع من أعمار غيرنا؛ لأننا نواجه الموت وجهًا لوجه كل يوم، ونحمل أوجاع الناس في صدورنا التي لم تعد تتسع لأنفاسنا.

والحوار الدائر في نفس كلٍّ منا "بدلًا من أن أعيش لحظتي البسيطة بعد ساعات العمل مع أسرتي بطمأنينة مستَحَقة يمر كل مريض ليقتطع جزءًا من روحي، ويتركه معلقًا في ذاكرتى بآلامه، كأن الفرح دينٌ مؤجلٌ لا يُسمَح لنا بسداده!"

هذا الضغط غير الإنساني يتحمله الطاقم الطبي على اختلاف مسؤولياته بصمتٍ ثقيل، وإخلاصٍ لا يُرَى.

غير أن العجيب المؤلم هو ما يُقَابَل به هذا الصبر من صراخ ذوي المرضى، وشجاراتهم، واعتداءاتهم على الطاقم الطبي، ثم تُرفَع التبريرات المعلبة، والجاهزة:

«اتحملوا... ما احنا خايفين، ومضغوطين، وقلقانين على المريض! حسوا بينا شوية!».

وهنا يفرض السؤال نفسه بإلحاحٍ لا مهرب منه:

بعد إحضار المريض إلى المستشفى ما دور المرافقين فعليًا؟ هل سيجري أحدهم العملية الجراحية للمريض؟ هل يستطيع

أحدهم تشغيل جهاز الموجات فوق الصوتية؟ أو إجراء التحاليل المطلوبة؟ وهل تقع عليهم أي مسؤولية حقيقية -كما يدَّعون- تبرر العنف اللفظي أو الجسدي الذي لا يبرره أي سبب؟ هل يعقل بعد مواجهة مئات المرضى ومرافقيهم يوميًا أن يتحمل الطاقم الطبي كل هذه الضغوط ويتحولوا إلى منفذي لمطالب المجتمع بأن يصبحوا ـــ بدلًا من أطباء وممرضين ومسعفين ـــ مصلحين اجتماعيين؟

والسؤال الأهم: هل يُطلَب من الطاقم الطبي أن يتحمل مهاترات ذوي المرضى كجزء من واجبه **!؟**

في الحقيقة المجردة من الزيف، وجودهم – في اللحظات الطارئة والحرجة – كعدمه؛ فلا أحد قادر على إنقاذ المريض بعد إرادة الله بالنجاة سوى الطاقم الطبي، ومع ذلك يتحول بعض المرافقين إلى عبءٍ ثقيل على المنظومة الصحية يعتدون لفظيًا، وأحيانًا جسديًا، ويربكون القائمين على إنقاذ المريض، ويعيقون الأطباء، والتمريض، والمسعفين عن أداء عملهم، بل وقد يسهمون – دون وعي – في تعريض حياة المريض نفسها للخطر.

الأغرب من ذلك كله هو مطالبة المجتمع للطاقم الطبي بالصمت، والتحمل، وكأن الإهانة بندٌ من بنود الوصف

الوظيفي، وكأن الكرامة رفاهية يمكن الاستغناء عنها، هذا المناخ لا يصلح لأي مجال عمل، فما بالك عزيزي القارئ بعملٍ يتعلق بأرواح البشر؛ حيث تفصل فيه الثانية بين الحياة والموت! فهل يجوز السكوت على ذلك؟

للأسف الشديد لم يعد الضغط الواقع على الطاقم الطبي حبيس جدران المستشفيات، بل امتد إلى الهواتف، ومواقع التواصل الاجتماعي، والمنصات الإعلامية، حيث تُطلق الاتهامات جزافًا، وتُقدَّم الأحكام دون فهمٍ علمي أو إدراكٍ لطبيعة الممارسة الطبية، حتى غدا الطبيب في نظر البعض متهمًا، بل مسؤولًا مباشرًا عن كل وفاة.

هذا المناخ المربك يضاعف من حجم الضغوط النفسية والمهنية، ويهدد جوهر العمل الطبي؛ إذ لا يمكن ليدٍ ترتجف تحت وطأة الاتهام أن تمسك مشرطًا بثبات، ولا لقلبٍ مُثقَلٍ بالقلق أن يؤدي دوره على الوجه الأمثل.

ولا جدال في أن المضاعفات الطبية، والأخطاء غير المتعمدة أمور واردة الحدوث في جميع فروع الطب، وهي احتمالات معترف بها علميًا ومذكورة بوضوح في المراجع الإكلينيكية، فكل إجراء طبي تحكمه نسب متوقعة للنجاح والفشل، وتتأثر نتائجه بعوامل عديدة خارجة عن إرادة الطبيب في مقدمتها

طبيعة استجابة جسم المريض، وحالته الصحية العامة، وما يعانيه من أمراض مزمنة كداء السكري وارتفاع ضغط الدم، وغيرها من الحالات التي تؤثر بشكل مباشر على مسار العلاج والتعافي.

على سبيل المثال، نزيف ما بعد الولادة يمكن أن يحدث بعد الولادة الطبيعية أو القيصرية، ويعد من الطوارئ المحتملة طبيًا، ولا دخل للطبيب في حدوثه ما دام التدخل الطبي سليمًا، والإجراءات المتبعة لوقف النزيف تتبع البروتوكولات المتعارف عليها بغض النظر عن النتائج.

ومن ثم، فإن الواجب المهني والإنساني يقتضي التعامل بحزمٍ حقيقي، وتفعيل القوانين، واللوائح المنظمة للممارسة الطبيةً بأقصى درجاتها حمايةً الطواقم الطبية، وضمانًا لأداء رسالتهم في بيئة آمنة، مستقرة خالية من ضغوطٍ إضافية لضمان جودة الرعاية الصحية، وسلامة الجميع.

يكفي الطاقم الطبي أنهم محاسبون أمام الله ثم القانون على أرواح البشر، ويبذلون كل ما في وسعهم من علمٍ وجهدٍ وضمير آخذين بالأسباب، وتبقى المصائر، وكل شيءٍ بيد الله وحده.

عزيزي القارئ، في النهاية نحن بشر؛ أي فانٍ يحاول إنقاذ فانٍ آخر.

حين علمتني المناطق النائية معنى الاختلاف

كم كنت محظوظًا! وربما أكثر مما أستحق، فقد قادتني الأقدار في بداية عملي إلى إحدى الوحدات الصحية في صعيد مصر؛ حيث البساطة تُجاور الصبر، والتاريخ، وتعلمك الظروف هناك أن الطب ليس مهنة بقدر ما هو رسالة تُكتَب بالرحمة.
ثم قادتني الخطى شمالًا على امتداد الساحل الشمالي إلى مستشفى الضبعة المركزي؛ لأعمل هناك كطبيب مقيم بقسم النساء والتوليد، وأجد نفسي بين بحرٍ لا يهدأ وصحراء لا تنام.

في تلك البقعة حيث تمتزج زرقة البحر بصفرة الرمال تعاملت مع ثقافاتٍ شتى، ولهجاتٍ متباينة، لكنها جميعًا كانت تنتمي إلى وطنٍ واحدٍ، يمد جذوره في الأرض كأمٍّ حنون تحتضن أبناءها، وإن تباينت طباعهم.

كانت الضبعة نافذةً مفتوحةً على مصر بأكملها، لا لشيءٍ إلا لحملها أحد أهم المشاريع الوطنية على أرضها (مفاعل الضبعة النووي).

كانت ملتقى الناس من كل المحافظات، العمال، والمهندسين، والأطباء، وكل فئات المجتمع، لكن ما شدني أكثر لم يكن التنوع في الوجوه، بل نمط حياة البدو، ولا أتحدث عن سكان مدينة الضبعة، إنما سكان الصحراء الحقيقيين.

حدثني كثيرٌ منهم عن حبهم لتلك الأرض "القاحلة"، عن الصحراء التي يراها غيرهم جحيمًا، لكنهم يرونها جنةً لا تشبه سواها.

نعم، كنت دائمًا أتساءل، وأسألهم بدهشةٍ لا تخلو من فضول شابٍ حديث الخبرة بالحياة:

"حياة الصحراء صعبة... ليه متسكنوش المدن؟"

وكان الرد المعتاد بكل بساطة:

" منعرفش نعيش هناك، ومش بنحب هناك..."

كنت أتعجب! كيف يختار الإنسان حياةً قاسيةً كهذه في عام ٢٠٢٥؟

لكنّ الأيام كعادتها كانت أصدق المعلمين، فكل يومٍ يمضي يفتح في عقلي نافذةً جديدةً، تعلمت هناك أحد أهم الدروس في حياتي ربما لم أقرأه، أو يخبرني به أحد:

أن لكلٍّ منا نظرته الخاصة التي يعيش بها في مدينته، أو صحراءه، وأن ما نراه "الأفضل" لنا ليس بالضرورة الأفضل في عيون الآخرين.

الذي نشأ على اتساع الأفق لا يحتمل زحام السيارات، ولا ضجيج المدن، تمامًا كما لا يستطيع من اعتاد الزحام أن يحتمل وحدة الصحراء، وسكونها الثقيل.

باختصار لا تحاول تغيير الآخر لما تراه"الأفضل"، فأن تطلب من البدوي أن يعيش في المدن يشبه أن تطلب من طفلٍ صغيرٍ عبور الطريق الدائري بمفرده، وأن تطلب من ابن المدينة أن يسكن الصحراء يشبه أن تطلب من شيخٍ عجوزٍ أن يسير دون عكازه، فأدركت أن الناس لا يختلفون في قلوبهم بقدر ما يختلفون في "عدساتهم" التي يرون بها العالم.

في النهاية لا تحاول أن تقتلع عيني؛ لأبصر بعينيك، فربما ترى عيني من الجمال ما غاب عنك.

طبيب المستقبل ذكاؤه اصطناعي

أمل المريض في التخلص من الألم مستمد من ثقته بإنسانية الطبيب... منذ نشأة الطب كرسالة، ومهنة بُنيت العلاقة بين الطبيب ومريضه على ثلاث. الأمل، والإنسانية، والثقة، وتلك المشاعر النبيلة جعلت المريض يأتمن الطبيب على حياته.

تكوَّنت تلك المشاعر عن طريق التواصل، والتفاهم المتبادل، وتراكمت الثقة عبر التاريخ، فترسخت في عقول الناس تلك الصورة النمطية عن الطبيب الذي ترك كل ملذات الحياة لدراسة الطب، وعلاج الناس، تارة يلقبونه بالحكيم، وتارة أخرى يضربون به المثل في الإنسانية، والنبل، فتوطدت تلك العلاقة المتبادلة.

منذ القدم استخدم الأطباء آلاتٍ بدائية بعضها حاد، والبعض الآخر غير حاد لاجراء العمليات الجراحية التقليدية ذات الجروح الكبيرة نسبيًا، والتي تحتاج لوقت أطول للتعافي، كما كانت معدلات الوفيات، والفشل كبيرة، فلم تلبِ النتائج المرغوبة التي تتناسب مع قيمة الحياة، وما يتطلع إليه الإنسان.

تبدلت الأيام، ووصلنا إلى مرحلةٍ متطورة للغاية؛ حيث تُجرَى العمليات الجراحية الكبرى، والدقيقة بمعدل نجاح عالٍ جدًا، ومعدل وفيات أقل بكثير مقارنة بالسابق، والأهم دخل إلى عالم الطب مصطلحًا جديدًا، وهو "الجراحات طفيفة التوغل" أو "الجراحات التنظيرية".

مع هذا التطور العلمي الهائل كان لا بد من سن القوانين التي تنظم العلاقة بين الطبيب والمريض لضمان الاحترام المتبادل، والحفاظ على حقوق كل منهما، وأداء الواجبات المهنية على أكمل وجه كما ينص القسم الطبي، أو قسم أبقراط، فتطوَّرت العلاقة بين الطبيب والمريض أكثر، وأكثر.

كحال المجالات المختلفة لم يتوقف التطور العلمي عند هذا الحد، وبدأ الحاسوب، والذكاء الاصطناعي يستخدم في الطب؛ ليساعد الأطباء في تشخيص الأمراض بدقة أكبر، وتقليص نسبة الخطأ البشري إلى أدنى المستويات، وهو ما يتفق مع الهدف الرئيسي من فن الطب، ومن المفترض أن يبعث الشعور بالراحة لدى المرضى.

كان الغرض من تطوير الآلة في الأساس مساعدة البشر، لكن للأسف الشديد أصبح الغرض استبدالهم، وهو ما أصبحنا نلاحظه في مجالاتٍ عدة، فهناك مصانع كاملة تعمل بالروبوتات، والآلات ذاتية التحكم، وهناك تطبيقات طبية تعمل بتقنية الذكاء الاصطناعي يقوم المريض بكتابة الأعراض، ويقوم التطبيق بالتشخيص، وكتابة العلاج، أصبح تقدم البشرية مرتبطًا بكتلة المعدن تلك.

نعم، كتلة المعدن جامدة المشاعر كجمود هيكلها، فهل حقًا يمكن للبشر الاستغناء عن الأطباء بالطب الرقمي أو الذكي؟

نحن البشر نثق بأن مرتدي المعاطف البيضاء أصحاب تلك الأجساد الفانية -التي تجري في عروقها الدماء وتتألم عبر شبكة معقدة من الأعصاب- يشعرون بما نشعر، ويتألمون كما نتألم، وهو ما يمدنا بالراحة، والاطمئنان، والثقة، والإيمان أحيانًا

بضرورة اتخاذ القرارات الصعبة التي لا تتناسب مع النتائج المنطقية، وهو ما يتميز به الطبيب البشري عن ذلك الطبيب المستقبلي مصطنع الذكاء.

من الناحية النظرية قد تكون الآلات أكثر دقة، وأفضل كفاءة، لكن يظل العامل البشري عمليًا أفضل بكثير من الآلة، فمن ناحية التواصل مهما تطورت الآلة -وإن كانت نسخة طبق الأصل من البشر- تظل في النهاية آلة تفتقر إلى المشاعر، والإنسانية، ولن تحظى بالثقة؛ لأنها ليست بشرًا.

من المؤكد أنه لا يمكن ضمان عدم حدوث أخطاء تقنية لتلك الآلات مهما طورها صانعوها، كما لا يمكن للروبوت أن يتعامل مع المشاكل النفسية التي يواجهها البعض؛ لأن الأمر كله يتمحور حول النفس البشرية، وفي بعض الأحيان لا يخبر المريض طبيبه بالحقيقة لشعوره بالحرج، وهو ما يستدعي مهارات التواصل الممزوجة بالمشاعر الإنسانية من جهة الطبيب لطمأنة المريض، فيخبره بالأعراض الحقيقية، ناهيك وجود عن معضلة قانونية تخص كيفية التعامل مع الأخطاء المهنية لتلك الروبوتات، وكيفية ضمان حقوق المريض.

كل ذلك يبدد المخاوف، والشكوك حول هذا الطرح غير العقلاني من البعض، ويجعلنا نعيد التفكير بشكلٍ أكثر إتزانًا

وواقعية في كيفية تطوير الطب، وضرورة رفع كفاءة، وتطوير قدرات الأطباء العلمية، والاجتماعية أولًا قبل تطوير الآلة، والذكاء الاصطناعي.

عزيزي القارئ، في رأيي -الذي يحتمل الخطأ قبل الصواب- علينا تركيز الاستثمار في التدريب المستمر للأطباء، ورفع كفاءتهم، وتطوير قدراتهم، وهذا لا يعني بالضرورة أنني ضد الاستثمار في تطوير تقنيات الذكاء الاصطناعي، فهي في الوقت ذاته مفيدة للغاية، لكن علينا تحديد دور تلك الآلات في تسهيل عمل الأطباء، وتحسين جودة الخدمة الطبية، وتقليص نسبة الخطأ، كما أقترح أن يتوفر في هذا التدريب مهارات استخدام الذكاء الاصطناعي أيضًا؛ لأن التحدي الأكبر -الذي سيواجه الأطباء- على المدى المتوسط والبعيد يكمن في استخدامهم لتلك التكنولوجيا الحديثة، وكيفية التفاعل معها، وفهمها لاتخاذ قرارات طبية آمنة، ودقيقة.

من غير الحكمة التخلي عن الأطباء، واستبدال الآلات بالبشر، إنما يتوجب على الصانع أن يدير صناعته، وليس للمصنوع أن يدير صانعه، فهل ستثق في طبيبٍ ذكائه اصطناعي؟

ختان الإناث

ما لا تعيشه من الصعب أن تشعر به، تخيل أن مجموعة من الناس أمسكوا بك، وفتحوا فمك على مصرعيه، وشد أحدهم لسانك بعنف شديد، ثم أمسك أحدثهم بسكينٍ، وقطع لسانك، وتركوك تلاقي مصيرك بين نزيف الدماء، وهول الصدمة!
يا له من ألمٍ جسدي، ونفسي لا يمكن لأي إنسانٍ أن يتحمله! أليس الأمر صعبًا؟ لكن الأكثر صعوبة إذا علمت أن من

ارتكبوا هذه الجريمة هم أقرب الناس إليك، كوالدك، ووالدتك، وشجعهم على ذلك بعضٌ من أفراد عائلتك، فأصبح مصدر الأمل مصدرًا للألم.

ستعيش طوال حياتك صامتًا، ليس فقط لأنه لسانك، لكن خوفًا، وشعورًا بوصمة العار الممزوج بالخذلان، والاكتئاب الذي لن يفارقك، فالأمر لن يتوقف عند ذلك الحد فقط؛ لأنك لن تتلذذ بالطعام من جديد، لكن لا تنسى أن كل هذه المأساة في حال إذا كنت لا تزال على قيد الحياة بعد كل هذا النزيف.
لماذا شعرت برجفة تزلزل أرجاءك وتبعثر ما بداخلك؟ أليس الأمر مختلفًا عندما يتعلق الأمر بك؟ ماذا لو فعل أحدهم ذلك بابنك أو ابنتك أو أختك؟

يقول الله عز وجل في كتابه العزيز: {الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِنْ طِينٍ}.
إذا كان لسانك عضوًا خلقه الله لوظيفة هامة في جسدك فإن الأعضاء التناسلية للأنثى خلقها الله لوظيفة لا غنى عنها في جسدها أيضًا، وقد خلقها في أحسن صورة.

ما نطلق عليه اليوم "ختان" ، أو "طهارة" الإناث يعد كارثة لغوية، فمن الخطأ مقارنة ذلك بختان، أو طهارة الذكور، فالأمر في حقيقته يعادل "بتر" العضو الذكري، وليس إزالة القلفة التي تعد زائدة جلدية لا تؤثر على الإحساس، وفي إزالتها طهارة؛ حيث أُثبِتَ علمياً أن ختان الذكور يقلل من إصابتهم بالسرطان

في هذا المكان، ويقلل من إصابة الزوجات بسرطان عنق الرحم.

بكل أسفٍ تشجع بعض النساء هذه العادة القديمة الآثمة، وليس كل ما هو قديم بالضرورة صحيح، إن سلوكهن أشبه بثعلبٍ قُطِعَ ذيله بالخطأ، وعانى من الآلام الجسدية، والنفسية، وعدم الإتزان، وخسر سمته المميزة بين الثعالب، وعندما استهزأ به الآخرون راح يحدثهم عن مميزات قطع الذيل، وخفة الحركة، وكلما قطع ثعلب آخر ذيله يستنكر متسائلًا: "أين المميزات؟"

تكون الإجابة " لا تخبر أحدًا، هل تريد أن تتسبب لنا بوصمة عار!؟"، حتى قطعت بقية الثعالب ذيولها، وأصبح هذا المعتقد الخاطئ، والخوف من الاختلاف ميراثًا ثقيلًا مؤلمًا تتوارثه الأجيال.

إن ختان الإناث من الناحية الطبية على المدى القريب يتسبب بمشاكل كثيرة بداية من الألم الشديد، والنزيف، وقد يتطور الأمر إلى الوفاة مما حتم على أهل القانون سن قوانين صارمة تجرم هذه العادة الآثمة، وعقابها يتراوح بين ٥ سنوات إلى عشر سنوات من السجن المشدد، وسحب مزاولة المهنة من الطبيب، وإغلاق المنشأة الطبية، وسجن من ساعد على الفعل، أو شجعه.

على المدى البعيد يؤثر الأمر على الزوجة بشكلٍ سلبي من الناحية الجسدية؛ حيث يتطور إلى تشوهات، وإحداث عاهة مستديمة، وقد يتطور الأمر إلى العقم.

على الصعيد الاجتماعي يؤثر هذا الأمر بشكلٍ سلبي على المرأة خاصة بعد الزواج، وأحيانًا تتطور الأمور إلى حدوث مشاكل كثيرة نتيجة للاضطرابات النفسية، والاكتئاب، وانعدام الثقة، وقد تنتهي بأبغض الحلال، وهو الطلاق.
عزيزي القارئ، لم يبقَ في جعبتي لك من الأسباب سوى فتوى أهل الدين، فقد حرمت دار الإفتاء المصرية هذه الجريمة، وبإمكانك مراجعة الفتوى رقم ٥٨٣٢.

في النهاية كلُّ أبٍ، وأمٍ يتمنيان السعادة لأبنائهم، وبناتهم، وختان الإناث، وسعادتهن لا يلتقيان في طريقٍ واحد، فهل ترغب في أن تكون سببًا لتعاسة ابنتك؟

فلسفة الإصلاح والاستمرار

لطالما شَغَلَ السفر عبر الزمان بالَ الإنسان تارةً من بابِ الفضول، والاستكشاف، وتارةً أخرى من باب التغيير، فتصوَّر البعض إمكانية حدوث ذلك بآلة، وتحدث البعض الآخر عن فجوات وثقوب سوداء...إلخ من الطرق الأشبه بالمستحيلة، فلماذا يرهق الإنسان نفسه؟

يحاول بعض العلماء استكشاف التاريخ وأحداثه كأنه مقطع مصور من بثٍ مباشر، ويسعى البعض الآخر إلى تغيير بعض الأحداث الزمنية؛ ليصبح العالم "صحياً" أكثر بلغتنا الدارجة...إلخ، سأحدثك اليوم عن بعض مما تعلمته من سفري، لقد مررت بأقوامٍ كثيرة لم أشهد وجودهم، لكنني شهدت أطلالهم، وبناياتهم التي تعكس حياتهم من سطور التاريخ، اسمح لي أن أشاركك أولاً تساؤلاً راودني في كل بقعة زرتها من تلك البلاد، "يا أبو حميد، لو أنت تملك آلة الزمن هترجع؟ ولا إيه رأيك؟".

إن الاستكشافَ والفضولَ من الدوافع الملحة على الإنسان، فلا يمكن لإنسانٍ أن يعيشَ دون أن يستكشفَ، أو يشعرَ بالفضول، وأجمل ما يميزهما امتزاجهما بالغموض، دعني أوضح لك ما أقصده، ماذا لو عُدنا إلى زمن الفراعنة أو الرومان...إلخ وشاهدنا بأعيننا كلَّ التفاصيل؟

سأجيبك، سنكتب الكتب التاريخية المملة التي ستظهر كل الحقائق المفصلة، فيضيع شغف البحث، ويخمل العقل الساعي لفهم هذا الجزء المفقود من كل قصة، فقد تساوى الغموض والوضوح.

ستغلق المراكز البحثية، ويخمل الإنسان، ويفقد أحد أهم صفاته البشرية، وهو الشغف.

من وجهة نظري المحدودة إن أفضل طريقة للسفر عبر الزمان هي الوقوف في المكان الذي مرَّ عليه هذا الزمان، واستكشاف مراحل تكوينه الغامضة، وتصور حياة من عاشوا في هذه البقعة من الأرض على مر عصورها، هنا يمتزج الغموض، والشغف، والفضول، فلا يجب علينا أن نفهم كل شيء؛ لأننا لسنا بحاجة لذلك.

إن أجمل ما يميزنا نحن البشر أننا نخطئ قبل أن نصيب، وعلى الرغم من أخطائنا -كانت كبيرة أو صغيرة- نملك دائماً الأمل في الإصلاح، فماذا لو امتلكنا آلية تعديل المسارات؟
في رأيي الشخصي -الذي يحتمل الخطأ قبل الصواب- هذا يجردنا من الإرادة البشرية، والأمل الدائم، فالإنسان عليه أن يتعامل مع الأخطاء بمبدأ "إرادة الإصلاح"، لا التغيير الجذري أو الراديكالي للأمور، فلو توجب علينا أن نقتلع الأخطاء من جذورها، فهذا يعني أننا فقدنا مميزاتنا البشرية، وسنفقد معها كل شيء.

لماذا نعود في الزمان لتحذير أهل طروادة من حصان الإخائيين؟ وما الفائدة من العودة لإيقاف بركان فيزوف؟ هل من الصواب أن نعود في الزمن لوقف الصراعات والنزاعات؟
يتوجب علينا أن نشعر ببعض الألم؛ لنتعلم، ونفهم كيفية الإصلاح، وأن نرتكب بعض الأخطاء الآن؛ لنصوبها لاحقاً، هذا ما تمليه علينا طبائعنا البشرية، يمكننا تصحيح الأخطاء جميعها في الحاضر أو المستقبل، العالم لن يتوقف عند خطأ كبير كان أو صغير في الماضي، وفي كل الأحوال سيظل العالم موجوداً إلى أجلٍ لا يعلمه إلا اللّٰه، وهذا يعني أن فرصة الإصلاح لا تزال موجودة طالما يتنفس الإنسان.

إن شعورنا باليأس المؤقت أمرٌ ضروري؛ لنتمسك بالأمل الدائم، وشعورنا بالألم أكثر ضرورة؛ لنعيد توجيه الأمور صوب اتجاهها الصحيح، ولولا القرارات المتسرعة في لحظات الغضب لما تراجعنا عنها للتمسك من جديد بما نريد.
الحل يكمن في الإرادة الدائمة للإنسان المتمسك حتى النهاية بما يريد، هنا يختلف الأمر عن حلم السفر عبر الزمان، ففي النقطة الأولى اعترافٌ بالخطأ، وإرادةٌ للتغيير، وتمسكٌ بالاستمرارية مهما كانت الظروف والأحوال، بينما الأخيرة فيها تراجع للخلف، ومحاولة للتغيير الجذري، وإعادة كل شيء إلى الصفر

نتيجة لضعف الإرادة، فهل هذا يعني أن نتيجة المسار لن تكون واحدة في النهاية؟ وإن لم تكن واحدة، فهل ستكون أفضل؟ وإن كانت أفضل في نظر البعض، فهل هذا يعني أن ما سيترتب عليه هو الخير؟

إن الحكمة الإلهية توجب علينا احترام أخطائنا التي ارتكبناها، وأن نتعامل معها بموجب الإصلاح، وليس الاستئصال، وإلا لما كان العالم بهذا الشكل الجميل، نعم! "بهذا الشكل الجميل"... لماذا ننظر دائماً إلى الجانب السيئ؟

يا سيدي انظر عن يمينك، هذا رجل اضطر لبيع شركته بسبب خطأ بسيط ارتكبه في الماضي، ماذا لو عاد بالزمان؛ ليمنع حدوث هذا الخطأ؟ بالتأكيد سيخسر يوماً ما، ويضطر لبيع شركته، فهذا أمرٌ وارد الحدوث، لكنه سيحتاج في النهاية إلى تصحيح الخطأ بالسعي والعمل؛ ليجمع المال من جديد، ويستعيد ملكيته للشركة.

انظر عن يسارك هذا حيوانٌ منقرض، ماذا لو منعنا انقراضه؟ كان عدوه البيئي الموجود حالياً -وهو حيوان آخر مفيد لنا- غير موجود.

نحن بشر، نخطئ، ونصيب، وهذا أجمل ما فينا، لو أن كلَّ إنسانٍ حاول استئصالَ كل شيء، فهذا يعني أننا لن نعيشَ الحياة بمعناها الفلسفي الذي نعيشه الآن.
نعم، هناك حروب ودمار، فلماذا لا نمتلك إرادة الإصلاح والبناء والتشييد؟
قالوا "الشجاع من يعترف بالخطأ، والقوي من يصلح الخطأ، والحكيم من لا يقع في الخطأ".

"الحكيم"... اسم من أسماء الله الحسنى، وهذا المثل أعلاه لا ينطبق شقه الأخير على حياتنا كبشر، لقد ارتكبنا من الأخطاء ما يكفي لإسقاط أقوى الحصون كطروادة، وذبح ٧٠ ألف إنسان في بغداد على يد التتار...إلخ من الأخطاء البشرية الكبرى، وعلى الرغم من ذلك امتلكنا من إرادة الإصلاح ما يكفي؛ لنستمر، ونعيش في هذا العالم بمعناه المتطور الحالي.

يا عزيزي، كل ما أستطيع قوله أنه يتوجب علينا تقبل الأخطاء بكل أنواعها، ونصححها بالإرادة، والاستمرار، لا التراجع إلى الخلف بنية الاستئصال، وطمعاً في الحصول على كل شيء، فنكتشف في النهاية أننا خسرنا "كل شيء".

سيكولوجية الشباب المعاصر

"البحر الهادئ لا يصنع بحارًا ماهرًا"... لقد واجه الآباء المؤسسون لهذا التطور الذي نعيشه أمواجًا عنيفة، وظروفًا غير مواتية للنجاح كادت تعصف بكلِّ شيءٍ حاولوا صنعه، لم تكن هناك أموال كافية، أو وسائل مواصلات حديثة، أو كهرباء، أو سيارات، أو هواتف محمولة، وكانت الحاجة لحل مشاكلهم هي أم الاختراع.

كان يومهم الطويل ذا وتيرة بطيئة تسمح لأذهانهم بإعادة ترتيب أفكارها، ولم يكن التباطؤ في الحياة فقط بل في تلقي المعلومات، وسوق العمل، وكسب الأموال، وهو ما اعتمد على السعي الجاد للتعلم، والعمل الدؤوب، وخبرات متراكمة قد تحتاج إلى عشرات السنين من التجارب، وهو ما يعكس جودة هذا التطور، والأسس القوية التي بُني عليها، وسيكولوجية الأجيال التي عاصرت الثورة الصناعية، وما بعدها، فتلك النقلة غير المسبوقة بمثابة قطع سنوات ضوئية من التطور.

على الجانب الآخر يواجه الأجيال الحالية عدوًا لم يكن في الحسبان؛ حيث لم يتمكنوا من تطويع هذا التطور لصالحهم، وهو ما يعكس خمولهم، فعلى سبيل المثال الآلة الحاسبة تستطيع إجراء عملية حسابية لفئة المليار في لحظات، وهو ما كان يتطلب أيامًا من العمل الحسابي، وهو أمرٌ مفيد للغاية، لكن للأسف صرنا نستخدم الآلة في حساب عمليات جمع بدائية مثل (٥+٨+٣)=...

اتجهت عقول الشباب إلى المعلومات المختصرة السريعة، فأصبحت المقالات العلمية المفصلة، والمراجع الكبيرة غير مرغوب فيها، وأصبحنا نقرأ عناوين المقالات؛ لنستخلص منها النتائج، وهو ما يدل على كارثة علمية خطيرة، وهو السبب ذاته الذي أجبرني على اختصار مقالي هذا، وكذلك سوق العمل أصبح كاستخدام التطبيقات، والشركات الافتراضية غير

الموجودة على أرض الواقع، وكسب الأموال بأي طريقة بغض النظر عن مصدر تلك الأرباح.

لا يعني ذلك بالضرورة أن التطور سيء، لكن سوء استخدامه هو ما أوصلنا إلى ذلك، فلم يعد الهدف منه ابتكار حلول جديدة للمشاكل، إنما إيجاد بدائل لكلِّ شيء موجود بالفعل، ولا يعني وجود بديل أنه يوجد اختلاف، لكن ارتبطت سيكلوجية الفرد، والمجتمع بالقيمة المادية للمنتج -التي تحدد قيمة الفرد في منظور المجتمع- لا القيمة الفعلية، فعلى سبيل المثال ستجد آلاف الأشكال، والألوان، والماركات العالمية، والمحلية من الصابون يتراوح ثمنها من نصف دولار إلى ١٠٠ دولار لكن فيما يستخدم؟ وما الفرق بينهم؟

الحقيقة يظل الصابون باختلاف الماركات في النهاية صابونًا يصنع الرغوة؛ ليستخدم في التنظيف، ولا يوجد أي فرق فعلي بينهم، وكذلك السيارات، والملابس، وغيرها.
لقد وصلنا إلى مرحلة من الجمود الهدف منها اشباع الرغبة في امتلاك القيمة ببدائل أكثر تكلفة يقوم على أساسها التصنيف الطبقي في المجتمع، وهو ما يعكس فكر الأجيال الحالية، فأصبحت السيكولوجية المجتمعية، والفردية تقتصر على القيمة المادية فقط.

بينما في الماضي كان الفرد يوجه علمه، وعمله إلى ما يفيد المجتمع؛ لأن المجتمع كان يقدر العلم، والإضافة الحقيقية، لكن

اليوم أصبح كل ما يشغل الفرد هو التكسب السريع بشتى السبل بغض النظر عن الاكتراث بنظرة المجتمع؛ لأن المجتمع نفسه تغيرت سيكولوجيته الجماهيريه.

انقلب كل ما صنعناه ضدنا، فأصبحت الأجيال الجديدة تعيش حياة سهلة لدرجة أدت إلى نشأة أجيال من المعاقين الأشبه بالمسوخ الذين لا يملكون عقولاً للتطوير، أو لإثبات الذات، ولم يعد هناك شغف لتحقيق أي شيء، ولم نعد ماهرين حتى في الحرف اليدوية كما كان أباؤنا، وأصبح المجتمع غير مشجع لابتكار ما هو جديد كأنه اكتفى بما وصل إليه.

عزيزي الشاب، إن السعي وراء الكسب السريع لا يعني النجاح، إنما يعني تغير سيكلوجيتك صوب الاتجاه الخاطئ...
واعلم أن عدو اليوم أصعب بكثير من عدو الأمس؛ حيث أصبح الجهل وليدٌ من رحم العلم، والفشل وليدٌ من رحم النجاح، والانهيار وليدٌ من رحم البناء، فيا لها من مفارقة!

الفجوة بين العلم والوعي أزمة الإنسان في عصر المعرفة

في عصرٍ تتسارع فيه الاكتشافات العلمية بوتيرة غير مسبوقة، ويفيض فيه العالم بمعلومات دقيقة، وبيانات موثوقة يبدو أن الإنسانية تعيش مفارقة صادمة، وخطيرة يركض فيها العلم مسرعًا، ويتعثر فيها الوعي متثاقلًا، إن الفجوة بين ما نعرفه وما نفهمه، وبين الحقائق وما نفعله بها باتت تتسع بشكل يهدد المجتمعات، والفرد على حدٍ سواء.

لطالما كان الاكتشاف جوهر العلم، والفهم مضمون الوعي، فالإنسان بدون وعي أعمى، وبدون علمٍ أعرج، هذه الثنائية تتجسد اليوم في كل زاوية من حياتنا.

إن غياب الوعي يحول هذه الإنجازات العلمية أحيانًا إلى أدوات ضغط، أو وسيلة للتضليل، وللأسف لا نزال نقرأ، ونسمع أصواتًا عابرة تنطق دون وعي، وتعارض العلم، لكن ما هو أكثر خطرًا تصريحات بعض ممن يرتدون ثياب المعرفة، وهم منهما عراة، ويصدقهم كثيرون.

على غير المتوقع لا تُقَاس الفجوة بين العلم والوعي بأعداد الدراسات المنشورة، أو بأرقام الأجهزة الحديثة، بل بسلوك المجتمع تجاه تلك المعرفة سواء في الساحات العامة، أو في لغة الإعلام، أو سلوك الأفراد، فنصف الحقيقة حين تُقدَّم بلغة علمية تكون أكثر خطرًا من الكذب الكامل؛ لأنها تمنح ثقة زائفة، وتقتل الفضول النقدي، فالخطر الحقيقي لا يكمن في الجهل، بل في وهم المعرفة الذي يولده الاستخدام غير الواعي للعلم.

ـــ "الجاهل يدرك نقصه، فيسأل، بينما نصف العارف يرفض الفهم، فيشرع في الإقناع".

تتجلى هذه الأزمة في سيكولوجية الفرد في تضارب المعلومات، وتضخيم الخوف، أو التهوين الزائف، فيتولد قلقًا مزمنًا، وتضعف الثقة بالنفس، وبالمؤسسات، وبالعلم.

في هذه اللحظة يتحول الفرد إلى مستهلك سلبي للمعرفة متذبذب القرارات، وسريع الانقياد، ومُعرَض للتلاعب بمشاعره، وسلوكه، وهو ما نلاحظه في الآونة الأخيرة.

بينما على مستوى المجتمع تنعكس النتائج على انهيار الثقة، واستقطاب الأصوات، ويعود ذلك إلى الاستغلال غير المسئول لوسائل التواصل، وقنوات الوصول مما يزيد الفجوة بين العلم والوعي أكثر وأكثر، ويحول المعرفة من أداة للتمكين إلى أداة للتضليل، فتتشكل مجتمعات تعرف الكثير، لكنها بكل أسف تفهم القليل، ويستوي فيها صوت المتخصص بصوت العابر، فيصبح النقاش العلمي ساحة استقطاب لا مجال تفكير.

ـــ "حين تُنصَب مدافع الشك تسقط أسوار اليقين".

عزيزي القارئ، إن تقدم أي مجتمع لا يعتمد على كم المعرفة، بل بما يستطيع فعله بتلك المعرفة ضمن إطار أخلاقي، فمن يختزل العلم في أرقام وتقارير من دون اقترانه بوعي جماعي يسير بالإنسانية نحو الانهيار كما يسير نهرٌ هادرٌ بلا ضفاف.

لا يكمن تحدي العصر في إنتاج معرفة جديدة، بل في إعداد الإنسان أولًا لاستقبالها، فإعادة الاعتبار للوعي بوصفه مهارة عليا ليست رفاهية، إنما ضرورة قصوى، نحن بحاجة إلى وعي يفرق بين الممكن والواجب، وينتقي من الجديد ما هو نافع، ويوازن بين الخوف المشروع، والهلع المُصنَّع، وبين الإدراك والاندراج.

— "لم يعد العالم يشكو فقرًا في المعرفة، بل اختلالًا في ميزانها".

إن مسؤولية أهل العلم في عصرنا لا تقتصر على الاكتشاف فقط، إنما تمتد إلى لغة الطرح، وضبط التأثير، وإعادة بناء الثقة من جديد، فمن يبني بلا بصيرةٍ يسرف في الهدم دون أن يدري.

في هذه اللحظة يبدأ عصر المعرفة الحقيقي؛ حيث لا يكون السؤال "ماذا نعرف؟"، بل "كيف نستخدم ما نعرفه؟"

رسالة زمنية

بعد حروب الردة طلب خالد ابن الوليد من أبي بكر الصديق -رضوان الله عليهما- أن يمده بالجنود، فأرسل إليه رجلًا واحدًا فقط، فتعجب الصحابة متسائلين: "أتمد رجلاً قد انفض عنه جنوده برجل واحد؟"، فهل تذكر إجابة الصديق؟

في واحدة من أعظم المعارك، وأكثرها شراسة في تاريخ المسلمين تحديدًا في اليوم الثاني من المعارك، أو يوم أغواث الذي جاء فيه الغوث، والمدد من الشام وعلى رأسه بطل مقالنا، وفي يوم عَمَاس بعد أن قتل كل من تقدم لمنازلته قبل المعركة

فتح هذا الصحابي الجليل الشجاع على الناس، ورمى مشافر الفيلة، وحلَّ عقدة الفيلة التي لا يعرف العرب كيفية مواجهتها، فلما خرقها ارتعدت، وتشتت ميمنة الفرس.

ومن بعده ليلة الهرير أثناء تراشق السهام بين المسلمين والفرس ليلًا أصيب خالد بن يعمر التميمي، فغضب لذلك الصحابي الجليل، وكرَّ على الفرس مكبرًا ثلاث تكبيرات، وبعد سماع تكبيرته الأولى زحفت قبيلة بني أسد ثم النخع ثم بجيلة ثم كندة، فعندما علم سعد ابن أبي وقاص -رضي الله عنه- قال: «اللَّهُمَّ اغْفِرْهَا لَهُ، وَانْصُرْهُ قَدْ أَذِنْتُ لَهُ إِذْ لَمْ يَسْتَأْذِنِّي»، وأمر سعد المسلمين بالزحف عند سماع التكبيرة الثالثة.

كان الهجوم الليلي الذي قام به هذا الصحابي ومن معه هو الأول من نوعه؛ حيث لم تعرف الجيوش الإسلامية ولا العربية في ذلك الوقت مثل هذا الهجوم، ويرى بعض المؤرخين أن هذا الهجوم هو الذي حدد مصير المعركة في اليوم التالي.

انتهت المعركة في يومها الرابع يوم القادسية بمقتل رستم قائد الفرس، وقد أثنى سعد ابن أبي وقاص على شجاعة هذا الصحابي بأبيات من الشعر -سأذكرها لاحقًا- يشهد له فيها بدوره المحوري الذي غيَّر مجريات المعركة.

لهذا الصحابي الجليل الشجاع فضل، ودور محوري في كل معارك المسلمين التي شارك بها، وكان دائمًا سببًا من أسباب النصر، ونشر الطمأنينة، والأمل بقلوب المسلمين بداية من فتح مدينة بهرسير والمدائن، ومعركة جلولاء سنة ١٦، وفتح حلوان، إلى معركة نهاوند، وبقية المعارك التي انتصر فيها المسلمون.

هل علمت الآن عمن أتحدث؟

"لا يهزم جيش فيه القعقاع".

هي كلمات باركه بها رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكل ما نطق به رسول الله فيه درس، هدف، ورسالة لكل الأجيال من بعده؛ لنتعلم منها، ونفكر، ونتدبر فيها، فقد نُسِب النصر، وعدم الهزيمة لوجود رجلٍ واحد بين صفوف المسلمين...

إذا كان القعقاع بمفرده قادرًا على ضمان النصر للجيش الذي يحارب بين صفوفه وهو رجلٌ واحدٌ بين آلاف الرجال فإن الحكمة تقتضي أن كلًّا منا يمكنه أن يغير مسار الأمور، ومجريات الأحداث في الحياة إلى الأفضل، ويكون قعقاعًا يثق به من حوله، ويكون رمزًا، ومصدرًا للأمان، والطمأنينة، والثقة كما كان القعقاع مع المسلمين، وهو ما نحتاج إليه اليوم من شبابنا أشد الاحتياج.

كانت إجابة أبي بكر الصديق: "لا يهزم جيش فيه مثل هذا، فصوته في الجيش خير من ألف رجل".

وأثنى سعد ابن أبي وقاص -قائد الجيش في معركة القادسية- عليه في أبياتٍ من الشعر قائلًا:

فَلَوْلا جَمْعُ قَعْقَاعِ بْنِ عَمْرٍو

وَحَمَّالٍ لَلَجُّوا فِي الْكِذَابِ

هُمُ مَنَعُوا جُمُوعَكُمُ بِطَعْنٍ

وَضَرْبٍ مِثْلَ تَشْقِيقِ الإِهَابِ

هنا تتضح الرسالة جلية لكلِّ شابٍ "كن كالقعقاع، وإياك والاستهانة بنفسك، أو بكونك فردًا بين زحامٍ كبيرٍ، أو أن تشعر أن تأثيرك ضعيف، فقد خلقك الله لحكمةٍ، ودورٍ هامٍ تؤديه في المجتمع، بلا شك يمكنك أن تكون شخصًا مؤثرًا في المجتمع، فاختر الخير طريقًا لك بمساعدة الناس، ونشر الخير، والصواب".

لعل الله يبعث فينا شبابًا كما القعقاع يعلو بهم شأن مصرنا الحبيبة أكثر وأكثر، وأوطاننا العربية، وأمتنا الاسلامية التي تحتاج إلى شبابها في هذه الأيام أكثر من أي وقت مضى.

دورك في بناء الأمة!

النشء... إن أول ما يخطر على بالك عندما تقرأ هذه الكلمة هم فلذات أكبادك، أبناؤك وبناتك الذين تكافحٍ، وتعمل بكد لأجلهم على أمل أن تبني مستقبل أفضل لهم.
على ذكر المستقبل هي كلمةٌ تحمل الأمل، وتستحق أن نضحي، ونستثمر بالحاضر لأجلها مهما كان الثمن باهظًا، ولا يوجد استثمار لمستقبل أي أمة أفضل من الاستثمار في أبنائنا، لعلنا نضع حجر الأساس في تقدمهم.

على مر العصور ارتبط التقدم ارتباطًا وثيقًا بالتطور العلمي، وانتقال الخبرات من جيلٍ إلى جيلٍ.

إن خبرات الأفراد، والمجتمعات -كنتاج لمجموع تلك الخبرات الفردية- تراكمية، ومع مرور الزمن أصبح البشر لديهم محصلة كبيرة من الخبرات في التعامل مع التحديات التي تواجههم في مختلف المجالات، وامتلكنا من الحكمة ما يجنبنا من الوقوع في أخطاء تجارب السابقين، فمن المفترض أن كلَّ جيلٍ يبدأ من حيث انتهى الجيل السابق...

دعني أعطيك مثالًا بسيطًا، لنتخيل أننا نقرأ عددًا ورقيًا لصحيفة، وهناك عنوان مكتوب بالخط العريض "أسس فلان شركة ناجحا قيمتها السوقية ١٠٠ مليون جنيه، وقد ورثها عنه ابنه الشاب..."، إن أول انطباعاتك بعد قراءة هذا الخبر أن هذه الشركة الناجحة من المفترض أن تكون أفضل، وأكثر نجاحًا، ومن المتوقع أن تزداد قيمتها السوقية أضعافاً، فالابن لديه إمكانيات تتيح له بالفعل تطوير ما أسسه أبوه من الصفر، دعنا نكمل قراءة الخبر "أعلنت الشركة إفلاسها..."!

هل شعرت بالصدمة وأصبت بخيبة الأمل بعد أن أضاع الابن عمرَ أبيه سدىً؟ فما بالك إذا كان الحديث عن مستقبل أمة بأكملها !؟

إن انتقال العلم، والخبرات من جيل إلى جيل هو سر استمرارية التقدم، وتقع مسئولية تعلم النشء الجديد ونقل الخبرات المختلفة -أكانت قليلة أو كثيرة- على عاتق الأجيال الأقدم ، هذه الخبرات هي التي ستحدد مكانة، ووتيرة تطور الأجيال القادمة، فالماضي، والحاضر هما الأساس الذي يرتكز عليه المستقبل.

بكلِّ أسفٍ يسجن البعض خبراته خلف ضلوع صدورهم كأنها مجرم حُكِمَ عليه بالمؤبد يموت مع صاحبه، في هذه الحالة يصبح النشء ضحية لحب الذات، والرغبة الفردية في الظهور، والانفراد بالتفوق على حساب المجتمع، والأجيال القادمة...

عزيزي القارئ، بالتأكيد لا يصح التعميم، لكن هذه ظاهرة نلمسها بالفعل في حياتنا اليومية، وتذكر دائمًا قول النبي ﷺ: "من سُئِلَ عن علم، فكتمه؛ ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار" صدق رسول الله ﷺ.

يجب أن نراجع أنفسنا، فلكلٍّ منا دورٌ مؤثرٌ مهما كان كبيرًا أو صغيرًا، فلا تبخل بعلمٍ، أو خبرةٍ؛ لأننا سَنُسأَلُ جميعًا أمام الله عن مستقبل هذه الأمة الذي نهدمه بأيدينا، ثم نتساءل لماذا غادرنا التاريخُ؟

رقصٌ على الأنقاض

في زمن يتقلب فيه العالم بين أزمات سياسية، وتحديات اقتصادية، وحروب دموية، وكسر القوانين العالمية، وانهيار للقيم الإنسانية يعيش جزء كبير من شبابنا في عالمٍ موازٍ تمامًا للواقع....

عالمٌ تتصاعد فيه الضحكات على وقع المقاطع الموسيقية، وتتساقط فيه المبادئ برقصات مبتذلة، بينما تتساقط مدن، وتُباد شعوب بأكملها.

ما الذي يحدث؟ وكيف أصبحت تلك الشاشة -التي لا تتخطى خمسة إنشات- نافذتنا الوحيدة إلى العالم؟ كيف لكلِّ هذا العالم الشاسع أن يُختَزَل في عدسة لا تتخطى حجم حبة العدس؟ ولماذا فقد جزء كبير من الجيل الجديد إحساسه بالعالم الحقيقي؟

بدأت تطبيقات كثيرة وعلى وجه الخصوص تيك توك كمنصات لمشاركة مقاطع قصيرة مسلية، لكن سرعان ما تحوَّلت إلى ظاهرة عالمية، خصوصًا بين فئة المراهقين والشباب، لكن المفاجأة أن هذا التطبيق يحمل بين طياته قدرة غريبة للتأثير النفسي، والسلوكي، ويغذّي شعورًا دائمًا بالحاجة إلى الترفيه، وتطور الأمر؛ ليصل إلى حد الإدمان، فخوارزمياته الذكية تُظهر المحتوى "الأسهل استهلاكًا، وانتشارًا"، لا "الأكثر وعيًا"، فهل هذه التطبيقات للترفيه؟ أم أدوات للتفريغ الثقافي؟

بكل أسفٍ أصبحت الشهرة السريعة، وأرباح المشاهدات بالرقص، والأفعال المنافية للآداب العامة تجعل اللا شيء، واللا قيمة يبدون جديرين بالاهتمام لدى الملايين. على الجانب الآخر أصبح المحتوى الجاد، أو الإنساني، أو السياسي في ظل التوترات الإقليمية، والعالمية يُهمَل لصالح تلك المحتويات عديمة القيمة.

في الوقت الذي تُرتَكب فيه مجازر بحق الأبرياء -كما في غزة- تتصدر منصات تيك توك مقاطع رقص تجذب ملايين الإعجابات، وتتراجع على إثرها مقاطع تظهر الحقائق، والدمار الناتج عن الحروب، والمجاعات، وغيرهم، كأنهم يخفون الحقيقة مستغلين "الرويبضة المغيبين" الذين يرقصون فوق الرماد، ولا يدركون أن النار قد تصل إليهم قريبًا!

بكل أسف تُستَغل الأزمات، والحوادث كـ"تريند" لجلب التفاعل، وتراجعت الحساسية الأخلاقية مع تصاعد ثقافة الـ"شو"، أو "المظاهر"؛ حيث كل شيء يمكن تسويقه، حتى الحروب، والدمار، والكوارث الإنسانية أصبحت مقاطع يتم تداولها، واستخدامها للضحك، والترفيه.

هنا يطرح السؤال نفسه أين الخلل؟

من الظلم اختزال المشكلة في تلك التطبيقات، وخوارزمياتها فقط؛ فالمشكلة الأكبر هي غياب الوعي الجماعي، وغياب دور الأسرة، والمدارس، والمؤسسات الإعلامية، والتربوية في توجيه الشباب.

نحن أمام جيل تشكله الخوارزميات أكثر من أي جهة تربوية، فالترفيه تحول من وسيلة استراحة مؤقتة إلى وسيلة هروب دائم من الواقع، وغابت الأسئلة الوجودية الهامة: "من أنا؟ وما

دوري في هذا العالم؟ وكيف أتعاطف مع الآخرين؟ ماذا لو كنت مكانهم يومًا ما!؟"

لكلِّ أبٍ، وأمٍ، لكلِّ مدرس/ة، ولكلِّ إنسانٍ لا يزال متشبثًا بعقله يرفض خسارته عند هذا المنحدر، لا يمكننا ترك الأمور تنجرف بلا وعي إلى الهاوية!

عليكم بالحوار مع أبنائكم، ومراقبة استخدامهم للمحتوى الالكتروني، ويجب تفعيل دور المدارس، والمؤسسات التربوية؛ لتعود إلى سابق عهدها، وأطالب "المؤثرين" بالقراءة، والتعلم، والتحول من "الترفيه الفارغ" إلى محتوى يحفز الوعي، والاهتمام بالعالم، ويوقظ هؤلاء من غيبوبتهم، أما الشباب فعليهم أن يسألوا أنفسهم تلك الأسئلة، "ما قيمة ما أقدمه؟ وما الأثر الذي سأتركه؟".

التحدي الحقيقي هو أن نعرف متى نتوقف، ولماذا، فالعالم الواقعي ينزف من كل زاوية، ونقاط التوتر تملأ الخريطة، والحروب تشتعل في كل مكان، هذا العالم البائس يحتاج إلى شباب واعٍ يعيد اتصاله مع الواقع، والقيم، والإنسانية.

في النهاية تيك توك ليس عدوًا، لكنه مرآة تعكس واقعًا، فما الذي تراه حين تنظر إليها؟

كأن الزواج صراع!

عاصفةٌ تضرب القلوب، فتمحي معالمها الجميلة، وتشوه الصورة الكائنة داخل النفوس، وتبقى آثارها مدفونة تحت ركام انعدام المسئولية، وأنقاض التخلي، وأحيانًا يعتبرها البعض بابًا لسجنٍ مشددٍ قد انفتح بعد معاناةٍ تتهاوى أمامها الأحلام، ونزيفٍ من المشاعر لا يمكن تعويضه مهما مرت الأيام، وخذلانٍ لكلِّ أمنيات البدايات، لكنه يظل في كل الأحوال نارًا تحترق بها شجرة الأسرة، وتكتوي به قلوب ضحاياه من الصغار الأبرياء، فهو أبغض الحلال.

في الماضي كانت الحياة بسيطةً في متطلباتها، واختياراتها محدودة، ولا يكاد سقف التوقعات يتخطى فكرة العيش دون حاجة، أو كما يطلق عليه البعض "الستر، والصحة"، وأفضل مثال على ذلك كبار السن في الريف المصري؛ حيث لم يمتلك أغلب الرجال المال، إنما الشهامة، والخصال النبيلة، وقطعة أرضٍ صغيرةٍ بالكاد تكفي أهلها ذل الحاجة، وبعض رؤوس الماشية، وعددٌ من الدجاجات التي توفر لهم ما يحتاجونه من طعامهم اليومي، ولم تمتلك النساء إلا التفهم، والصبر، والمثابرة، والحب الصادق.

على الرغم من أن حياتهم كانت بسيطةً، وصعبةً للغاية إلا أنهم عاشوا حياة المشاركة، فشاركت المرأة بفطرتها زوجها في فقره، ومرضه، وعمله، وأوقاته العصيبة، وشارك الرجل زوجته في مرضها، وأوقاتها العصيبة، وكل ما يشغل بالهم هو تخطي الصعاب معًا، وتحمل قسوة الحياة، وتربية أبنائهم.

لقد جعلتهم تلك الحياة المحدودة شاكرين لله على نعمه، وكلُّ شيء جميل في حياتهم يُشعِرَهم بالامتنان، والسعادة، فكلمة طيبة من الزوج لزوجته أفضل بكثير من أي أموالٍ، أو هدايا، أو غيرها من الأمور التي تعبر عن الزواج الناجح.

بكل أسفٍ أصبحت أغلب العلاقات سريعًا ما تنهار؛ حيث يستمد شباب اليوم أفكارهم عن الزواج من الأفلام الرومانسية، محضُ توظيف، وضخ للمشاعر الزائدة عند المراهقين لملء فراغهم العاطفي؛ ليشعروا بسعادة مؤقتةٍ دون التأني في الاختيار، أو حتى معاييره، فيعلو سقف التوقعات واقعَ اليوم، وانشغل الجميع بقهر المستحيل في تناسي للأسس السليمة التي يُبنى عليها الزواج الناجح، وتغاضى الجميع عن حقيقة أننا بشر ولسنا ملائكةً.

تعددت الخيارات في الحياة، فأصبحت المتطلبات بلا نهاية.

حالةٌ من الجوع الدائم، وانعدام الشبع من الرغبات -كانت أساسية أو غير أساسية- بغض النظر عن الإمكانيات الفعلية، والظروف المحيطة، الكل يريد، لكن لا أحد يفكر لوهلةٍ ما الذي قدمه للآخر؟

أصبح الزواج عبئًا كبيرًا أثقل كاهل الآباء بالديون، ولم تعد ثقافتنا الآثمة من إقامة أفراح بمئات الآلاف من الجنيهات مناسبة بأي حال من الأحوال، فهل تساءلنا يومًا عن ارتفاع نسبة الطلاق في العام الأول من الزواج؟ هل يتوجب على والد العروس أن يشتري من كلِّ شيءٍ نسختين أو أكثر؟

للأسف نسبة الطلاق في العام الأول هي الأعلى لأسبابٍ أغلبها يمكن معالجتها بسهولة، وعلى رأسها عدم التفاهم بين الزوجين

نتيجة لعدم التأني في الاختيار، ومحدودية القدرة لتلبية المتطلبات الزائدة، وعدم الفهم السليم لفطرة المشاركة، وانكارها نتيجة للفهم الخاطئ، والثقافة الآثمة المنتشرة بين الذكور، والإناث كأن الزواج معركة لإثبات النفس بين الطرفين، وهناك فائز، وخاسر، لا تكامل في منظومة واحدة.

تعد القدرة المادية المحدودة للزوجين -التي لا تكفي تطلعاتهما الزائدة عن متطلباتهما الأساسية- في سنوات الزواج الأولى أحد الأسباب الرئيسية للطلاق، وهو أمرٌ طبيعي، فلا يوجد بداية سهلة، لكن ماذا لو وفرنا تكلفة حفل الزفاف كدعم مادي لهما؟ ألن يشكل ذلك فرقًا كبيرًا؟

انعدام الثقة في أحيانٍ أخرى قد تكون السبب، كثيرًا ما نسمع عن زوجة غادرت منزل الزوجية آخذةً ذهبها معها بعد أول خلاف دار بينهما، وهو ما يجعلنا نتساءل أليست هذه أيضًا ثقافة آثمة ونية مسبقة لضعف الترابط بينهما نتيجة لانعدام الثقة؟

لم يعد الطرفان يكترثان إلى مبدأ التعايش، لكن كل ما يشغل بالهما هو تلبية المتطلبات، وإشباع الرغبات لا أداء الواجبات.

في بعض الأحيان نلاحظ تحكم الأهل، وتدخلهم في اختيارات، وقرارات الزوجين مما يسبب حالة من التشتت، والامتعاض، وقد يتطور ذلك إلى الانفصال في كثير من الأحيان، كما أن

الزواج المبكر لقليلي الخبر، وعديمي المسئولية ينتج عنه طلاقًا سهلاً دون الاكتراث لعواقبه الوخيمة.

يأتي الدور على الشيطان الأكبر، والفتنة الكبرى التي دخل حرها إلى كلِّ بيتٍ من بيوت المسلمين، وهو الهاتف المحمول، وما يتضمنه من مواقع التواصل الاجتماعي؛ حيث هناك ثقافة المقارنة، والاختيارات كالغسالات الأمريكية، والتلفاز الفرنسي، والمكنسة اليابانية ذات الأسعار الباهظة، والتي لا تتناسب مع الظروف المادية لمتوسطي، ومحدودي الدخل، كما أعطت مواقع التواصل الحق لغير المثقف في إبداء الرأي، ونشر التجارب السيئة عن الزواج، وثقافة المطالبة بالحقوق دون أداء الواجبات.

ينكب الزوجان على هاتفيهما طوال اليوم تاركين نقاشاتٍ ضرورية لاكتشاف بعضهما البعض، أسيران في عالمٍ واقعه وهم متى يستفيقا من غيبوبتهما يجدا نفسيهما غريبين تحت سقفٍ واحد في عالم المسئوليات والعيوب، فيمسكان هاتفيهما من جديد؛ ليغيب عنهما الوعي.

عزيزي القارئ، إن الزواج تكاملٌ لا حرب، وهو اختيارٌ لا اجبار، فأحسن اختيارك، وتعامل مع شريك/ة حياتك بلينٍ، فما

فائدة الغلظة؟ وما فائدة العناد؟ هل تريد أن تعيش حياة هادئة سعيدة؟ أم تختار الحياة التعيسة؟

إذا أردت السعادة لا تقاوم، واترك نفسك مع التيار، واعلم أن الآخر لا يجب أن يكون مثلك تمامًا، كما لا يتوجب عليك أن تكون مثله، إنما التفاهم، وتقبل النقص البشري في كلٍّ منا، وتقبل الأخطاء، والنصح بكلِّ حبٍ أمرٌ ضروري لاستمرار الحياة، فغضبك الزائد عن الحد يعمق جرح زوجتك يومًا بعد يوم، ويبعد المسافة بينكما، وعليك مساعدة زوجتك في أعمال المنزل؛ لأن عمل الزوجة في بيتها تفضل منها لا واجب عليها، والمرأة مرآة الرجل إذا أحسن إليها ابتسمت، وإذا أساء إليها حزنت، فلا تكسر مرآتك التي تعكس رجولتك.

عزيزتي الزوجة، إن المرأة العنيدة اختارت الشقاء طريقًا لها، والمرأة المطلقة يعد الزواج نارًا أحرقتها، ومن اشترت كل ما هو غالٍ؛ لتتفاخر به لا يضمن ذلك نجاح زواجها، فلا تستمعي لأيٍّ من هن، واستمعي لقلبك، فلا يصنع المال الزواج الناجح، لكن الزواج الناجح تصنعه إرادة الإنسان، واختياره للسعادة.

أخي، وأختي، إن النقص البشري أجمل ما يميزنا، فعجز المرأة عن أداء بعض المهام شيء طبيعي؛ لأن زوجها يكملها، وعجز الرجل في بعض الأمور لا يعيبه، فيستطيع قهر كل ما يعجز

عنه بتشجيع زوجته، الأمر يتوقف على رؤيتنا للأمور، وتقبلنا لها، وطريقة تعامل عقولنا مع ما يدور حولنا.

حفظكم الله، ورعاكم، ورزقكم السعادة، ونعمة الزوج/ة الصالح/ة، ورزقكم الذرية الصالحة.

صراع المستقبل وعصر الأزرار

صوَّرته الأفلام والقصص -أحياناً- أنه رجلُ المستقبلِ، وصانعُ التقدمِ، وصوَّرته -أحياناً أخرى- أنه رمزٌ للنهايةِ وقاتلٌ بلا مشاعر أو وعي، اعتبره المشاهِدُ في الماضي أنه محضُ خيالٍ علمي، لكن في الآونةِ الأخيرةِ بدأَ هذا المولودُ الجديدُ في النموِ والتطورِ بوتيرة متسارعة، ومخيفة.

تدورُ أغلب السيناريوهات ذات طابع الخيال العلمي في الماضي عن مستقبلِ الرجلِ الآلي أو "الروبوت"؛ حيث يُطَّوَر عددٌ كبيرٌ

منهم لمساعدةِ البشرِ، لكن هناك دائمًا الخوف من تحول الأمر إلى حربٍ في حال تمردوا على البشرِ.
تناولت سيناريوهات أخرى مناقشةَ تطوير الإنسانِ الآلي ومميزاته؛ ليصبحَ لديه عقلٌ إلكتروني يشبهُ نظيره البشري.

إن خيالَ البارحةِ بات اليومَ واقعاً ملموساً في مجالاتٍ عدةٍ، ساهمَ الإنسانُ الآلي، والذكاء الاصطناعي في تسهيلِ مصاعبِ الحياةِ، ورفعِ جودةِ الصناعاتِ، وتقليلِ نسبةِ الأخطاءِ البشريةِ، فهو مبرمَجٌ؛ ليجري ملايين العملياتِ الحسابيةِ في أقل من بضعِ ثوانٍ.

لن تقفَ مجدداً في هذا الصف الطويل في المصالحِ الحكوميةِ، وستتناول وجبتك المفضلة من المطعمِ -الذي تترددُ عادةً عليه- بجودةٍ عاليةٍ وثابتةٍ، تخيل منزلك نظيفاً ٢٤ ساعة في اليومِ دون أن تشعرَ زوجتك بالإرهاقِ...إلخ من مميزاتٍ لم تكن متاحةً في الماضي.

على سبيل المثال الروبوتات ذاتية التحكم -التي تعتمد على تقنيات الذكاء الاصطناعي- والتي ستعمل على راحتك، وتغسل لك ثيابك، وتعد لك الفطور، والقهوة، وتعلم أبناءك، وتؤدي لك كل مهامك اليومية، ستجبرك كل هذا المميزات عاجلاً أو آجلاً على شرائها في المستقبل إرضاءً لزوجتك المنهكة قواها حدَّ الإعياء من آلاف الواجبات المنزلية،

وستعمل تلك الروبوتات على رفاهية كل سكان الأرض، إن الراحة بانتظارنا يا صديقي!

-"بي تو!"

*"نعم سيدي"

-"كوب قهوة بدون سكر"

*"أوامر يا سيدي، إنني أسعى إلى راحتك".

أبشر لن تتأفف زوجتك من طلباتك الكثيرة بعد الآن، أو يزعجكِ زوجك بطلباته التي لا تنتهي، والأهم لن تطلب منك زوجتك أن تلقي القمامة في هذا الصندوق البعيد عن المنزل، لكن هل تخيلت يوماً أنك ستكون السبب في دخول عدوك لبيتك؟ لقد اشتريت للتو عدوك، وأدخلته بيتك بيدك كما فعل فرعون مع موسى تماماً، فتلك الآلة -التي ستعلم أطفالك- مبرمجة؛ لتحصد ما ينتظره صانعها في المستقبل...

كتلةُ المعدنِ تلك قادرةٌ على فعلِ كثيرٍ من الأمورِ التي نعجزُ عنها -نحن البشرَ-.

نعم، "كتلة المعدن" ذات المشاعر الجامدة كصلابة مادتها، ليست من عظام، أو لحم تسري الدماءُ في عروقه، أو أعصابًا يُشعِرُها بالألم، لكنها مبرمَجةٌ على مثاليةِ التنفيذِ، والطاعةِ العمياءِ لشتى الأوامرِ، لكنها تفتقرُ إلى الضميرِ والمشاعرِ التي لا يتميزُ بها إلا كل ما خلقه الله عز وجل.

تخيل أن آلياً تم برمجته؛ ليصبح جندياً في الجيشِ تُحَتِمُ عليه مثاليةُ التنفيذِ، والطاعةُ العمياءُ أن يقتلَ دون تفكيرٍ، ماذا لو وقفت أمامه امرأةٌ؟ أو لاعبه طفلٌ؟ أو مر أمامه شيخٌ أعزل؟

لم يكن البشري ليطلق النارَ رحمةً، لكن هذا المعدني سيقتلُ دون ترددٍ.

إن البشرَ بكلِّ ما توصلوا إليه من تطورٍ علمي وعقلي قد ارتكبوا من المذابحِ والمجازرِ ما لا يتناسبُ مع ضمائرهم ومشاعرهم، فتخيل ما سيرتكبه المعدني الصلبة مشاعره.

اليوم بدأ سيلٌ من الروبوتات في التدفقِ إلى سوقِ العملِ، أنستبدلُ الآلاتِ بأنفسنا؟

العملُ يعني الحصولَ على المالِ؛ لنعيشَ حياتنا الطبيعيةِ، فنأكلَ الطعامَ، وندفعَ فواتيرَ المياهِ والكهرباءِ...إلخ، فهل ستنتهي الأنظمةُ الماليةُ والاقتصاديةُ؟

إذا امتلكت الروبوتات كلَّ هذا العلم، والقدرة الحسابية العالية على حلِ المعادلاتِ والمعضلاتِ، ما فائدة المدارس والأنظمة التعليمية؟ بل ما الفائدة من البشر؟

إلى أين سيذهبُ الإنسانُ؟ وكيف سيعيشُ؟ وماذا سيصنعُ في حياته الخاملةِ؟

إن التطورَ البشري مرتبطٌ على مرِ العصورِ بنشاطِ الإنسانِ، اليوم نحن نتحدثُ عن خمولٍ بشري غير مسبوق لملايين البشر بلا عملٍ، وزيادةٌ كارثيةٌ في معدلاتِ البطالةِ، إن هذه الآلات المعدنية ستجلسُ على عرشِ العالمِ، وستسودُ من صنعوها، فالشرطةُ الآليةُ ستفرضُ القانونَ الملزمَ والرادعَ، والطبيب الآلي جامد المشاعر لن يثق به مريضه، المحاكمُ سيقفُ فيها البشرُ أمام قاضٍ آلي، حتى بائع الفريسكا على الشاطئ سيكون رجلاً آلياً...

ارتبطت التخمة على مر العصور بكثرة تناول الطعام، وزيادة الوزن، وأحياناً يتطور الأمر بتأثر جودة حياة الإنسان، وقدرته على الحركة بشكل طبيعي، وكانت الوجبات السريعة، وحياة الخمول أهم أسباب التخمة في عصرنا الحديث، فأغلب الأعمال أصبحت مكتبية، ولم تعد الحركة جزءاً أساسياً من معادلة العمل، لكن ساهم إدخال الآلات في حياة الإنسان بوجه عام، وفي مجالات العمل المختلفة بوجه خاص في قلة الجهد البدني

منذ بداية الثورة الصناعية، فأصبح الخمول سمة العصر، والتخمة مرضه.

مما لا شك فيه أن القوة البدنية للبشر أصبحت أقل بكثير في عصر الأزرار عما كانت عليه في عصور الأوزار، على الرغم من أن ما وصلنا إليه من تطورٍ ذهني، وعلمي في أغلب المجالات يفوق ما وصل إليه أسلافنا إلا أن وتيرة تطورنا لم تعد بالتسارع ذاته، قد يرجع ذلك إلى حالة الرضا مما وصلنا إليه، لكن الحكمة -التي نعرفها جميعاً- تقول "العقل السليم في الجسم السليم"، وترتبط صحة العقل ارتباطاً وثيقاً بصحة الجسد، فالجسم الخامل يتسلل الخمول إلى عقل صاحبه.

عزيزي القارئ، بكل تأكيد لم أكتب مقالي لأتحدث عن مخاطر زيادة الوزن، فالكلمة في عصرنا أصبحت طيِّعةً مرنة تحمل عدة معانٍ...

في الماضي كانت الأخبار تحتاج إلى أيام، وربما شهور لتصل إلى مُتَلقيها، تطور الإنسان بمرور الوقت، وتعالت أصوات الآلات شيئاً، فشيئاً في ثورة صناعية لم يشهد لها التاريخ مثيلاً من قبل، فامتلك الإنسان آليات أسرع كالسيارات، والقطارات، والطائرات، والهواتف...إلخ.

اليوم أصبحت الأخبار، والأعمال بين أيدينا، وفي جيب كلٍّ منا، ولم يعد يفصل بيننا، وبين أي شيء سوى ضغطة زر واحدة، "يا له من أمرٍ رائع، والأكثر روعة أننا نتفاعل معه بالسرعة ذاتها"...

بل يا لها من كارثة! ما هذا الكم الهائل من المعلومات غير الهامة التي تستقبلها عقولنا!؟ وكيف أصبحت الأرائك، والأسرة مكانًا للنوم، والعمل في الوقت ذاته؟

أصبحت المعلومات الساخنة، والسريعة المختصرة هي سمة العصر، حتى في التعليم، والبحث العلمي، وتتطاير الأخبار الهامة، وغير الهامة يميناً، ويساراً في حيزٍ صغيرٍ، فأصبحت أخبار الدقيقة الواحدة تعادل أخبار سنواتٍ، فانتفخت العقول حتى أصبحت خاملةً كأبدان أصحابها.

كل هذه الأمور التي نناقشها نعيشها في الحاضر بسبب الآلة في صورتها المجتزأة اليوم، ماذا عن المستقبل الذي ستكون فيه الآلات ذاتية التحكم وأكثر تعقيدًا وتطورًا؟

لن يرهق الإنسان نفسه في التفكير بعد الآن، وسيتخلى عن عقله، ويعتمد اعتماداً كلياً على الآلات، فلماذا يفكر في عملية جمع رقمين؟ ولماذا يتحرك من أريكته ليستخدم الآلة الحاسبة؟

فقط كل ما يحتاجه هو قول "بي تو ما حاصل جمع ٢٣ + ٥١؟"...

أصبحت وتيرة الحياة أسرع مئات الأضعاف عن الماضي، وزادت الرفاهية حد الخمول، ولا يعني ذلك أنني ضد ذلك كله، إنما يتوجب علينا تنظيم تلك الفوضى بحيث تتلقى عقولنا ما نحتاجه من المعلومات الهامة؛ لتسيير حياتنا، وأعمالنا كما هو مفترض أن يكون.

إذا كانت التخمة بكل معانيها هي المرض الأخطر في الحاضر، فإن تخلي الإنسان عن عقله، وإنسانيته هو الخطر الأكبر في المستقبل، فلماذا يفكر؟ ولماذا يبحث؟ ولماذا يتعلم؟ وهناك من يفعل كل ذلك بدلًا منه، كأننا "للخلف در!"

يجب على الإنسانِ أن يستغلَ الآلاتِ في بعضِ المجالاتِ بحكمةٍ دون التخلي عن العنصرِ البشري، فمن الهامِ أن يمثلَ العنصرُ البشري ٨٠٪ من الموظفين على الأقل، وأن تُستَغلَ الآلات فيما يعجزُ عنه الإنسانُ فقط، وأن تُسَن قوانين تنظمُ سوقَ العملِ وتصنيعَ الآلات، أو سيصبح الإنسان يوماً ما تحت رحمةِ من لا يمتلكُ الرحمةَ.

أصبح من الضروري على الإنسان التخلي عن فكرة تطور الآلة الحتمي في كل شيء، ويحد من استخدامها على حل ما لا يستطيعه فقط، ويعيد صياغة المصطلح إلى معناه الصحيح، وهو تطور العقل قبل أن يضغط الإنسان على زر التدمير الذاتي لكل المعاني الحضارية، والإنسانية، فيكون هذا هو الزر الأخير في عصر الأزرار.

عندما يتنفس الموت

منذ فجر التاريخ لم تكن الحروب وحدها أداة لتغيير العالم، بل كان لها في أحيان كثيرة رفيق خفي يسبقها، أو يرافقها، أو يَخلُفها كظلٍ ثقيلٍ.

من يتتبع خيوط التاريخ يلحظ ظاهرة غريبة متكرر... جوائح تضرب، ثم دول تترنح، ثم صراعات تشتعل.

فهل هو قدرٌ محتوم؟ أم أن الإنسان حين يخرج من معركةٍ مثقلاً بالهزيمة يبحث عن معركةٍ أخرى ليثبت أنه ما زال حيًّا وقادرًا **!؟**

في القرن السادس اجتاح طاعون جستنيان العاصمة البيزنطية، لم يكن المرض سببًا للانهيار الفعلي، إنما نتائجه؛ حيث غادر تاركًا خلفه اقتصادٍ متداعٍ، وجيشٍ واهنٍ، وشعبٍ مرهقٍ.

فجأة! تحوَّلت إحدى أعظم الامبراطوريات في التاريخ إلى غصنٍ يابسٍ ينتظر أول ريحٍ تأتيه من الشرق، أو الغرب؛ لتهدم أعمدته، وتقتلع جذوره التي امتدت لقرون.

هكذا مهد الوباء الطريق لتغيرات عسكرية، وجيوسياسية كبرى لم تكن ممكنة في أزمنة سابقة.

بعد ثمانية قرون تقريبًا حلَّ الطاعون الأسود (١٣٤٧م - ١٣٥١م) كعاصفة اجتاحت أوروبا، فأسفرت عن ملايين القتلى، لم يتركوا فراغًا في البيوت فقط، بل في الحقول، والورش، والثكنات، والخزائن أيضًا.

انكسرت قبضة الإقطاع، وارتفعت أجور العمال، وتحوَّل الغضب الاجتماعي إلى تمرد، وعلى عكس المتوقع لم ينهي الوباء حرب المئة عام (١٣٣٧م - ١٤٥٣م)، بل غيَّر قواعدها، فاستُبدِلَت المدافع بالفرسان، وزادت أعداد المرتزقة، وظهرت لأول مرة فكرة الجيش النظامي الدائم، لقد لعب الطاعون دور المهندس الخفي لتلك الحرب الطويلة، فتغيرت موازين القوى، وخريطة النفوذ في أوروبا.

أثناء غزو العالم الجديد (الأمريكتين) في القرن السادس عشر لم يكن الإسبان بحاجة إلى أسلحة كثيرة لإسقاط إمبراطوريات الأزتك، والإنكا، فالأوبئة -التي حملوها معهم كالجدري والحصبة- قتلت مئات الآلاف من السكان الأصليين الذي لم يعهدوا هذه الأمراض من قبل مما أدى إلى تراجع كارثي في أعدادهم، وضعف جماعي، وتحطم البنية السكانية، والمجتمعية، وعدم القدرة على المقاومة، فتسبب ذلك في إنهيار امبراطورية الأزتك في أغسطس ١٥٢١م بعد حصارها من قبل الإسبان وحلفائهم.

لم تكن الحرب هنا صراعًا بمفهومها التقليدي بقدر ما كانت غزوًا بيولوجيًا غير مقصودٍ، غيَّر مصير قارتين بأكملهما.

على خلاف النهاية السعيدة في رواية "الحب في زمن الكوليرا"؛ حيث رفع فلورنتينو، وفيرمينا الراية الصفراء على سفينتهم -إشارة إلى الحجر الصحي حتى لا يصعد أحد على متنها- معلنين انتصار حبهما على الزمن، والمرض، والموت؛ ليصبح خالدًا مثل نهر الماغدالينا الذي لا يتوقف عن الجريان...

إلا أن واقع العالم خارج سفينتهما كان مغايرًا للنهاية السعيدة، ولم يرمز النهر لخلود الحب، بل حملت مياهه الوباء إلى البطون، فأصبح مصدر الحياة بؤرةً للمرض.

واجتاحت الكوليرا مدن العالم من أقاصي الشرق إلى الغرب، ولم تكن الجائحة مجرد أرقام في دفاتر الصحة، بل أداة في يد المستعمر الأوروبي الذي استغل فوضى الوباء الجديد لفرض مزيد من الهيمنة بينما تتزايد نقمة الشعوب على حكوماتها العاجزة بعد ست موجات من الوباء.

في نهايات القرن التاسع عشر تزاوجت الأوبئة مع النزعات القومية، وصراعات السيطرة؛ لتلد لنا قرنًا مشتعلًا بالثورات، والحروب الكبرى, ويدخل العالم في فصل جديد عنوانه "من الكوليرا إلى المدافع".

بعد أن وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها، وأُخمِدَت نيران جبهاتها، فُتِحَت جبهة جديدة في رئات البشر، فالإنفلونزا الإسبانية قتلت أكثر مما قتلت المدافع؛ حيث وصلت التقديرات من ٥٠ إلى ١٠٠ مليون إنسان، فوجدت أوروبا -التي خرجت للتو من حرب الخنادق- نفسها في حربٍ أخرى مع عدوٍ غير مرئي، فتضاعفت المآسي، وتعمّق الانهيار الاقتصادي، والاجتماعي.

هذه الأرض اليباب المثقلة بالأرامل، والأيتام، والبطالة، والفقر كانت بيئةً مثاليةً لولادة النازية، والفاشية بعد عقدين فقط؛ لتنفجر حربًا ثانيةً أكثر شراسة على أنقاض هذه الجائحة.

منذ بضع سنوات اجتاح فيروس كورونا العالم، وتسبب في فوضى عارمة، وتضخم اقتصادي، واضطراب في سلاسل الإمداد مما تسبب في إرتفاع أسعار الطاقة، والغذاء، وارتفاع نسبة البطالة، والفقر.

ربما لم يكن وباء القرن الحادي والعشرين سببًا مباشراً في صراعٍ شاملٍ، لكنه أزاح الستار عن هشاشة النظام العالمي، وضعف اقتصادات الدول، فانطلقت شرارات توتر بين القوى الكبرى منها الحرب الروسية الأوكرانية التي استغل فيها الروس -على الرغم من تأثرهم الشديد- الانشغال العالمي، والضعف السياسي، والاقتصادي للدول، فكشفت الأزمة عن تصدعات كبيرة قد تتحوَّل في المستقبل إلى مواجهات أكثر خطورة، ولا يزال العالم يعاني إلى الآن من نتائجها الكارثية.

ربما أطلقت كورونا كغيرها من الجوائح شرارة لحربٍ كبرى قد تحدث خلال العقد القادم نلمس بوادرها، ومؤشراتها، فالعالم قبل ٢٠١٩م يختلف كثيرًا عن العالم الآن.

قارئي العزيز، إذا تتبعنا كل هذه الخيوط التاريخية سنفهم أن الأوبئة لا تشعل الحروب من العدم، بل تضغط على موارد الدول، فتكشف مكامن الضعف، وتفتح شهية الطامعين.

إن الجوائح ترهق الاقتصادات، وتبدل التوازن السكاني، وتبدد الموارد، وتضعف الثقة، وتترك شعوبًا منهكةً، وأحيانًا يصبح المرض نفسه أداةً في يد ساسةٍ يبحثون عن نصرٍ خارجيٍ لمداواة هزيمةٍ داخليةٍ، هكذا تتحول الأوبئة من أزمات صحية إلى محفزٍ لصراعاتٍ تنتظر فقط شرارة...

حين نقرأ التاريخ بعيونٍ يقظةٍ نفهم أن المرض ليس مجرد فصل عابر بين حربين، بل جسر يعبره العالم من سلامٍ هش إلى صراعٍ مدمرٍ.

هنا يطرح السؤال نفسه "بعد كل جائحة جديدة هل نتعلم كيف نرمم الجسر؟ أم نتركه يتصدع حتى نسمع من جديد وقع طبول الحرب!؟

لو جاءنا التطور طائعًا!

من حق كلِّ أمةٍ أن تحلم، لكن أجنحةَ الحلمِ لا تنبت إلا على أكتاف الكفاح. لنتخيل... لا على سبيل الخيالِ المجرد، بل كمن فتح نافذةً على تاريخٍ ممكنٍ, وأن العلم بين أيدينا، وأن القوة العسكرية سيف لا ينثني بينما بقية الأمم غارقة في عصور الظلام، يندهشون من المدافع -تلك الآلات التي تطلق كرات من اللهب- كما نندهش اليوم من المركبات الفضائية، ويرون صواريخنا كالنيازك الغضبى تهوى من علياء الغيوم.

ماذا لو تحقق كلُّ ذلك؟

لا، لا تنظر إلى المستقبل، بل أدِر ظهرك إليه، وتعال معي إلى النصف الأول من القرن الثالث عشر، إلى زمن اهتزت فيه الأرض تحت سنابك خيل المغول، وانكسر قلب الأمة بسقوط بغداد.

في تلك الحقبة وُلد نجم الدين حسن الأهدب، المعروف بـ "حسن الرمّاح"، ونشأ في عائلة امتهنت صناعة السيوف والرماح. ورث المهنة عن أبيه وجده، لكنه أضاف فكرًا جديدًا. ومع تقدم المغول نحو الغرب بعد سقوط بغداد أدرك أن الأسلحة التقليدية وحدها لن توقف هذا السيل الجارف.

في عام ١٢٦٠م نشبت معركة عين جالوت، كان المغول يتقدمون كالطوفان، وفجأة انهمرت عليهم سهام معدنية كبيرة متفجرة، وجرار نارية تشعل الأرض تحت أقدامهم، فارتبكت الصفوف، وتعالت ألسنة اللهب، وتكاثف الدخان... لم يفهموا ما الذي أصابهم.

كان ذلك إيذانًا بظهور نوع جديد من الأسلحة وصفها مهندسها حسن الرماح في كتابه "الفروسية والمناصب الحربية" بدقة مذهلة صواريخ ذات أنابيب معدنية لديها أجنحة، وعصا للتوجيه، ونسب وقود محسوبة بدقة شديدة مع اختلافات في

التصميم، والمدى، وشدة الانفجار - أقرب ما تكون إلى صواريخ اليوم.

قبل سطوع نجم الرماح وصف اللورد جان دو جوانفيل - مؤرخ فرنسي - في مذكراته عن الحملة الصليبية السابعة (١٢٤٨ - ١٢٥٤م) أحد هذه المقذوفات العربية قائلًا:

"كان يتجه نحوك مباشرة بحجم برميل الخل، وذيله من نار بطول رمح، كان صوته حين يقترب كأنه رعد السماء، وبدى كأنه تنين يطير في الهواء يلقي ضوءًا ساطعًا لدرجة أنك في المعسكر كنت ترى كلَّ شيء بوضوح كأنه النهار في هذا السيل الهائل من اللهب، وكان ملكنا القديس كلما سمع صوت قذائف النار يجلس في فراشه، ويرفع يديه وعينيه إلى مخلصنا، ويهتف باكياً: أيها الرب، احفظ لي شعبي".

هذا الوصف على الأرجح كان للمدافع العربية البدائية أو قاذفات البارود، وهو من أقدم الشهادات الأوروبية على استخدام المسلمين للأسلحة النارية.

لم يكتفِ الرمّاح بتطوير الصواريخ الطيارة؛ فقد ابتكر الطُّربيدات البحرية لتفجير سفن الصليبيين، مستخدمًا البارود والنفط كمادة متفجرة لأول مرة، لا كمجرد وقود. كتب تفاصيل ذلك في "البنود في معرفة الفروسية"، وشرح فيه أسلحة

الحصار، والمدافع، وآليات الإطلاق، ولا يزال نموذج لهذا الطُّربيد محفوظًا في متحف "الطيران والفضاء" الأمريكي.

في ١٢٩١م انطلق الظاهر بيبرس والمماليك صوب الساحل الشرقي للبحر المتوسط حيث عكا آخر معاقل الصليبيين في الشام، حاصروا المدينة لمدة شهرين برًا وبحرًا، شهدت هذه المعركة استخدام المماليك المكثف للبارود، والمدافع، والقنابل اليدوية البدائية والمقاليع، والصواريخ...

عاصر حسن الرماح تلك الفترة قبل وفاته، ويعتقد أن بعض ما وصفه في كتبه استخدم فيها.

كان علم الرماح امتدادًا لتراث من العلماء الذين سبقوه مثل بديع الزمان الجزري، وهو مؤسس علم الحيل (الهندسة الميكانيكية)، وصاحب كتاب "الجامع بين العلم والعمل النافع في صناعة الحيل"، الذي احتوى على أكثر من ١٠٠ آلة ميكانيكية مبتكرة منها مضخات المياه، وأنظمة تروس معقدة، وصمامات، والعمود المرفقي الذي يستخدم في المحركات اليوم.

أين صواريخ الرماح وتروس الجزري؟ كما هي عادة تاريخنا العربي فرّقت الصراعات الداخلية المماليك، وأُهمِلت المخطوطات، وضاعت الأسرار الحربية، ونُقلت كثير من هذه المعارف إلى أوروبا خلال الحروب الصليبية، وهناك وُلِدَ العلم

من جديد باسم مستعار في عصر النهضة الأوروبي، بينما أضعنا نحن الفرصة.

لولا أن التاريخ سار عكسنا ربما كان بإمكاننا أن نسبق العالم بقرون، لكن دفن العلم مع دفن علمائه، فلو جاءنا التطور طائعًا... لهجرناه!

فرصة العرب الضائعة

يقولون بدأت الثورةُ الصناعيةُ عندما سمعوا ضجيجًا في ورشة جيمس وات؛ ليعلن عن محركه البخاري.
ماذا لو أخبرتك أن هناك عالمًا مسلمًا اخترع المحرك البخاري قبل ميلاد جيمس وات بثلاثة قرون، ثم اختفى اسمه بين آلاف السطور، واختفى معه محركه من التاريخ.

في زمنٍ كانت أوروبا تحاول فيه الخروج من ظلام العصور الوسطى كان على الجانب الآخر من العالم تقي الدين ابن معروف الدمشقي، عالمُ فلكٍ، ومهندسٌ، وفيزيائي، ومخترع عاش في القرن السادس عشر يرسم مستقبل الآلات، ويصنع نواةً لثورة صناعية في الشرق.

في كتابهِ "الطرق السامية في معرفة الحيل الميكانيكية" وصف نموذجًا عمليًا لجهاز صنعه لا مجرد فكرة نظرية على الورق، وهو سيخ شوي ذاتي الدوران يحوّل ضغط بخار الماء إلى طاقة ميكانيكية؛ حيث يتم تسخين إناءٍ محكم الغلق به ماء حدَّ الغليان، فيزداد الضغط الداخلي، ويوجه الضغط، والبخار عبر أنبوب متصل بفتحة صغيرة يندفع على جهاز يشبه الطاحونة... هي الفكرة ذاتها التي ستغير العالم بعد قرون على يد جيمس وات!"

لكن لم يكن للعالم أن يسمع به. وفي عام ١٥٨٠م أُغلِقَ مرصده، وتبعثرت أوراقه، وضاع اختراعه في زوايا النسيان.

كغيره من ابتكارات العلماء المسلمين لم تُنتَج على نطاقٍ واسعٍ؛ لأنها كانت مشاريعًا علمية فردية، وليست مشاريعًا تجارية، كما

توافرت الطاقات البشرية، والحيوانية بأسعار رخيصة مقارنة بالمحرك، على الرغم من تقدم الدولة العثمانية آنذاك، لكن لم تتوفر البنية التحتية اللازمة لمثل هذه الصناعات الثقيلة، ولم يكن هناك حاجة ملحة لقوة ميكانيكية ضخمة لتشغيل المصانع، أو ضخ المياه آنذاك.

ربما لو تنفس محرك تقي الدين في زمنه، لأنعش قلب الأمة، ودبّت الحياة في عروقها، وأزاح عن كاهلها ركام الجمود، لتنهض بالحديد والبخار، وتشيّد هيمنة تتقد جذوتها ولا تخبو حتى اليوم.
في النهاية التاريخ لا ينسى العباقرة... بل نحن من ننسى قصصهم".

"باعوا فلسطين مرتين كما باعوا دبابات الشاه"

هذه العبارة ليست مجازًا أدبيًا، ولا تحليلًا صحفيًا، بل اعترافًا، وتصريحًا سياسياً مباشرًا لبوريس جونسون رئيس وزراء بريطانيا الأسبق.

في عام ١٩٧٩م قبيل إندلاع الثورة الإيرانية أبرم محمد رضا بهلوي شاه إيران صفقة مع البريطانيين، وطلب فيها دفعةً كبيرة من دبابات تشيفتن البريطانية الثقيلة، ودفع الشاه آنذاك ٤٠٠ مليون جنيه استرليني ثمنًا مسبقًا للصفقة، لكن لم يهنأ الشاه

بصفقته، وسرعان ما سقط، وسقط معه نظام الشاه في إيران، وسقط معه كل شيء... إلا المال.

لم تتسلم إيران دباباتها، ولم تسترد أموالها كأن شيئًا لم يكن. قامت بريطانيا ببيع نفس الدبابات مرتين، المرة الأولى الوهمية للشاه، والمرة الثانية لعدة دول أخرى، وقد شق بعض من تلك المجنزرات الثقيلة طريقها - طبقًا للتصريحات - إلى ترسانة صدام حسين في العراق.

الأمر أشبه بما فعلوه بفلسطين التي باعوها أولًا لفرنسا في اتفاقية سايكس–بيكو عام ١٩١٦م كمنطقةٍ دولية تُدرَج في خرائط التقاسم بعد انهيار الدولة العثمانية، وذلك ثمنًا للتحالف، ومكافأةً على دماء الحرب العالمية الأولى.
ثم باعوها مرة ثانية للعرب وعدًا بالاستقلال الذاتي، جزاء مشاركتهم في ثورتهم ضد العثمانيين... استقلالًا كُتِبَ بالحبر لا بالنية، ووُعِد به ليُنكث قبل أن يجف.

ثم باعوها بيعًا حقيقيًا أخيرًا لا لبس فيه، ولا مواربة لليهود تحقيقًا لوعد بلفور عام ١٩١٧م؛ حيث صارت الأرض تصريحًا، والتاريخ توقيعًا، والشعب هامشًا أسفل الورقة.

غربٌ يلعب بالأوراق، ويرسم خطوطًا، ويلوِّن الخرائط، ولم تكن النكبة الحقيقية خسارة معركةٍ، إنما ثقتنا في عدونا،

وانتظارنا للوفاء بوعده... ينطبق علينا المثل القائل: "عشم إبليس في الجنة!".
هكذا باعوا الدبابات، وهكذا باعوا الأوطان.

ويُختَتَم هذا المشهد العبثي الأخير بضحكة باردة ساخرة لبوريس جونسون، وقد وضع قدمًا على قدم قائلاً:
— "خدعة بريطانية تقليدية!".

الوجه الآخر للحضارة

في عالمٍ يتطاول فيه البنيان، وتُصقَل فيه واجهات المدن؛ لتبدو لامعة أمام عدسات الكاميرات يُخيَّل للمرء أن الإنسانية قد بلغت ذروة نضجها الأخلاقي.
تُبَثُ الخطب عن الفضيلة، وتُعقَد المؤتمرات عن حقوق الإنسان، وتتسابق كل دولة في استعراض قيمها، وأمجادها كأن التاريخ توقف عند حدودها، أو كأن المأساة الإنسانية لم تعبر يومًا شوارعها.

غير أن هذه الصورة اللامعة لا تعكس بالضرورة ما يراه المارة في الأزقة الخلفية، أو ما تعيشه الشعوب الواقعة خارج دائرة الضوء، فما تلتقطه كاميرات المسيرات من علٍ يختلف جذريًا عما تلمسه الأقدام على الأرض، فقد شُيدَت تلك البنايات الشاهقة في الأساس؛ لتخفي خلفها حقيقة أكثر قتامة من ظلها: عالمٌ يتقن التجميل، ويُحسِن التبرير.

يتحدث الساسة في المؤتمرات الصحفية عن القيم الإنسانية كما لو أن العالم قد بلغ صفاء مدينة أفلاطون، بينما تتوارى خلف تلك الكلمات الرنانة مخازن ممتلئة بشتى أنواع الأسلحة، وأدوات الفناء في مشهد لا يخلو من سخرية تاريخية؛ أشبه بوليمة سلام تُدار في قاعة أنيقة بينما تُخفَى السكاكين تحت الطاولة، هنا لا يُطرَح السلام بوصفه قناعة أخلاقية، أو غاية، بل خطاب مؤقت، وجسر ريثما تحين ساعة الصدام.

لا تكمن المفارقة في دولة بعينها، فالعالم في هذا السياق متشابه حدَّ التطابق. لا تختلف الولايات المتحدة عن الصين، ولا أوروبا عن روسيا، ولا الشرق عن الغرب، فالجميع يعلن رفضه للحرب، بينما يفيض التاريخ والحاضر معًا بسجلٍ حافلٍ بالصراعات، والحروب.

ينهمكون في البحث عن مبررٍ أخلاقي للحرب بينما الحرب في حد ذاتها أمرٌ غير أخلاقي، وكأن الجريمة تصبح فضيلة إذا صيغت بلغةٍ منمقة.

من هنا يبرز السؤال الجوهري:

- "هل القنابل الأمريكية أقل فتكًا لأنها تُلقى باسم الديمقراطية؟ أم أن الرصاص الأوروبي أكثر رحمةً لأنه يخرج من فوهةٍ وقعت على ميثاق الأمم المتحدة؟ هل الصواريخ الروسية أو الصينية تفقد إنسانيتها أو تكتسبها تبعًا للغة التي تُبرَّر بها؟"

في الحقيقة إنني لا أسأل عن السلاح، بل عن الوهم:

- "هل تختلف أدوات القتل باختلاف جنسياتها؟ وهل يمكن للموت أن يكون أخلاقيًا إذا نُطِق بلغةٍ راقية؟".

يقدم لنا التاريخ الإجابة بلا تردد، فلم يسأل ضحايا هيروشيما عن النظام السياسي لمن ألقى القنبلة، ولم يُخَفِف خطاب الحضارة من آلام فيتنام، ولم تمنح شعارات حقوق الإنسان أي نجاة لأطفال العراق، أو غزة، أو سوريا، أو أوكرانيا، فالضحية لا ترى العلم المرفوع على الدبابة، ولا تسمع الخطاب الأخلاقي الذي سبق الضربة، بل ترى الركام، وتسمع الصرخة الأخيرة.

تتباهى الولايات المتحدة بالديمقراطية، وتتفاخر أوروبا بمنظوماتها الحقوقية، وتتمسك روسيا والصين بخطاب القيم والسيادة، وفي الوقت ذاته يُسجَّل لكلٍّ منهم تاريخٌ طويل من الحروب، أو – بتوصيفٍ أدق – من "الجرائم المبرَّرة".

أليس في ذلك انفصامٌ صارخ بين المبدأ والممارسة؟ أم هو تغاضٍ متعمد عن منطقٍ لا يخدم الإنسانية إنما يخدم المنتصر؟

تبقى الحقيقة القاسية أن التاريخ لا يُدوِّن النوايا، ولا يحتفظ بنصوص البيانات الرسمية، بل يسجل أثرها من عدد الضحايا، ولا يعنيه كم مرة ذُكِرَ فيها كلمة "الإنسانية"، بل كم قبرًا فُتِحَ باسمها. لا يسأل الضحية عن موقف دولته من الديمقراطية، ولا عن توقيع قاتله على اتفاقيات جنيف، فالألم لا يُترجَم؛ لأن لغته واحدة، والدم لا يعرف الانتماء.

الأخلاق في زمن الحرب ليست مبدأً ثابتًا، بل رواية يكتبها المنتصر، وتُعاد صياغتها كلما تغيَّرت موازين القوى، فما يُصنَّف اليوم "دفاعًا عن القيم" قد يُدان غدًا كجريمة حرب، لا لأن الفعل تغيَّر، بل لأن المنتصر تغيَّر.

في الختام عزيزي القارئ، الدم واحد، والصرخة واحدة، والقبور لا تحمل أعلامًا، وكل ما يختلف حقًا هو جنسية الميكروفون الذي يبرر القتل.

نهج الإبادة، والتاريخ الأسود للاحتلال الصهيوني

سطورٌ مكتوبةٌ بالحبر، وصفحاتٌ ملطخةٌ بالدم، لا يكاد العالم يطوي إحدى تلك الصفحات؛ ليكتب في صفحةٍ جديدةٍ بيضاء إلا ولُطِخَت هي الأخرى بدماءٍ جديدةٍ.

تتبدل الأيام، وتتطور الأجيال، وتقوم دولٌ على أنقاض الأخرى، وتنسلخ الحروب من مبرراتها القديمة؛ لتتنكر خلف رداءٍ جديدٍ من الفضيلةِ الكاذبةِ، ومبرراتها المعاصرةِ.

لم تختلف جرائم هذا الاحتلال الوحشي في نهاية عام ٢٠٢٣م عن جرائمه منذ عام ١٩٤٨م، وسيخاف التاريخ كعادته من ذكرها في المستقبل إلا ببعضٍ من السطور المكتوبة بكلماتٍ رقيقةٍ منتقاة حرجاً من الإنسانية، وإرضاءً لضمير كاتبه الميت، حتى التاريخ يخاف هو الآخر من اتهامه بمعاداة السامية.

لكن إذا تناسى التاريخ، فنحن شهود، وأعمارنا المعاصرة تواريخ، وسأكتب في مقالي تاريخًا عاصرته كما حدث تماماً، ربما لم أعاصر المذابح في ١٩٤٨م، وأعتمد في ذكرها على روايات من عاصروها، لكنني أكتب اليوم عن أحداث، ومجازر الاحتلال ما بعد السابع من أكتوبر ٢٠٢٣م، وأستطيع التعبير جيداً عما أراه، فأنا في العقد الثالث من العمر.

لقد حولوا غزة إلى دمار، أو بتعبير أكثر دقة لقد محوها تمامًا، وهرب الفلسطينيون من بيوتهم، وسكنوا الشوارع تدفئهم نيران القذائف، وحرائق المنازل، ومنع عنهم الماء، والطعام، والمساعدات، وقصفت المستشفيات، والمساجد، والكنائس، وأغلب القتلى، والجرحى من الأطفال.

حتى الكلاب اقتحمت المستشفيات، وأكلت الأجنة المتوفاة في الحضانات التي توقفت عن العمل بسبب انقطاع الكهرباء لعدم توفر قطرة واحدة من الوقود، وكانت أعداد القتلى بالآلاف، وتكررت على مسامعنا جملة "لا يوجد جرحى الكل شهداء" في

إشارةٍ إلى نهجهم المعتاد، وهو الإبادة الجماعية، وقتل المدنيين، والأطفال.
اضطر الأطباء إلى إجراء العمليات الجراحية دون تخدير على ضوء الهواتف، أو الشموع بعد انقطاع التيار الكهربائي عن القطاع بأكمله، كأنهم عادوا إلى ما قبل العصور الوسطى.

تبعثرت الجثث في الشوارع، ودفنت تحت أنقاض المنازل، لم يجد الفلسطينيون أكفاناً كافية لدفن جثثهم، وعندما عجز العدو عن استعراض قوته على المقاومين -الذين كبدوهم خسائر فادحة بالمئات من الجنود، والدبابات في بداية حرب المدن والأنفاق- استعرض قوته على الأطفال، والنساء، وقتل النازحين الذين طلب الاحتلال منهم هجر بيوتهم!

قتلوا آلاف البشر حتى الحيوانات لم تسلم من مذابحهم، وحرقوا كل شيء، لكن توقف التاريخ عند خبر مقتل السنوار -الذي نحتسبه شهيدًا- بالصدفة أثناء اشتباكه مع قوة صهيونية معادية، وهو ممسك بسلاحه في الصفوف الأمامية مدافع عن أرضه التي سحتضنته بين ثراها عاجلاً أم آجلاً.

سيظل تاريخ مقتل السنوار نقطة فاصلة في تاريخ الصراع العربي الصهيوني، وخسارة عربية كبيرة قد تغير كثيرًا من مجريات الأمور، لكن القضايا لا تموت بموت الأشخاص مهما بلغوا من الأهمية، فهي قضية أمة بأكملها.

إذا أردنا أن نعبر عن همجية العدو بكلمات للأجيال القادمة يمكننا اقتباس كلمات وزير الدفاع الصهيوني غالانت قبل بداية الحرب في بيان بمثابة جريمة حربٍ علانيةً عندما قال:

- "هؤلاء ليسوا بشراً إنهم حيوانات، ويجب التعامل معهم على هذا الأساس، لا ماء، ولا طعام، ولا طاقة".

كلماتٌ لا تحتاج إلى شهاداتٍ، أو اعترافاتٍ، فهي على مسمع، ومرأى من العالم أجمع الذي وقف متفرجاً، وبكت الإنسانية تطور البشر الذي أصبح عكسياً.

منذ قديم الأزل نردد كلمة السلام -دون حلوله- على ألسنتنا نحن البشرَ، والعالم في حربٍ بلا نهايةٍ، وكل سلامٍ مؤقتٍ ثمنه حربٌ داميةٌ، كأنه محضُ مسكنٍ لآلام الحروب الخبيثة، فلا الورم استأصلته دغمائية الدول العظمى، ولا المسكن بدأ مفعوله مع أحلام الدول النامية.

وقف العالم بين مشاهدٍ، ومستنكر، وداعمٍ بينما يفترس ذئاب الصهاينة حملان السلام، تتعالى أصواتٌ الساسة في أروقة الأمم المتحدة شاجبين مدينين، لكن هل الشجب والإدانة أعلى من دوي إطلاق الرصاص؟

عزيزي القارئ، كل ما أستطيع قوله مهما ارتكبوا من مذابح، ومجازر، وتهجير في النهاية هو احتلالٌ، وكلُّ احتلالٍ إلى زوال، والحقوق باقية أبد الدهر، فالأرض لا تحمل على ظهرها

إلا أهلها، وتلفظ عنها الغرباء مهما طال الأمد، فلا تيأس، وتذكر تلك الكلمات جيدًا، إن وعدهم الانجليز، ومن بعدهم الأمريكان، وقد أوفوا، فقد وعدنا الله، وكان وعد ربي حقًا.

مفاتيح الديار

عندما كنت طفلاً أعيش الحياة الوردية بسعادة، وأرى كل شيء من حولي جميل، كنت أجلس بجوار أبي، وأمي أمام التلفاز، أرى، وأسمع أموراً لا أفهمها، لا أعرف معنى "الاحتلال"، أو "الأشلاء"، لكن صادفتني صورة طفلٍ صغيرٍ يبكي، ولأنني طفل مثله تعجبت مما يبكي، لكنني شعرت بالحزن لأنه يشعر به.

أشار هذا الطفل إلى جثة أخته الرضيعة التي تستر الدماء جسدها العاري، إن هذا الطفل الصغير -الذي شعر بالرغبة في البكاء- بداخل كلٍّ منا، جيلٌ رأى منذ الصغر الدماء، والأشلاء، وفهم معنى الاحتلال قبل أن يفهم الطفل في الجانب الآخر من العالم معنى الحياة.

حالي كحال كل عربي أيقظني المنبه في غضون الساعة الخامسة فجراً، ضغطت على زر إغلاق المنبة غير نائم، وغير مستيقظ، أشعر بالكسل الشديد، والغضب الأشد، أود أن أحطم ذاك المنبه المزعج الذي يصيبني بالصداع، لماذا يتوجب عليَّ الاستيقاظ باكراً؟

يا إلهي! إنني بحاجة إلى ساعة أخرى من النوم، على كلٍّ استيقظت، وتوضأت لتأدية فريضة الصلاة، وتناولت فطوري، وارتشفت قهوتي اللذيذة، وبعد عشر دقائق سيحين وقت العمل، أمسكت هاتفي الذي زاد عدد التنبيهات عن الخمسين؛ من الواضح أن هذا العالم المليء بالكوارث لن يهدأ أبداً...

أثناء تصفحي انستجرام شاهدت مقطع فيديو يتحدث فيه رجلٌ في أرذل العمر تسرد تجاعيد وجهه المملوءة بالدموع كأخاديد غمرتها السيول حياةً مليئة بالبؤس، والحزن، بدأ يحكي لمصوره عن كابوس راوده أثناء نومه، حيث بدأ الأمر أثناء عودته من العلاج ، ومروره بجاره عم محمود الرجل اللطيف الذي يحبه الجميع، هذا الحي الجميل مليء بالأشجار، وألوانه

المبهجة التي تبعث الراحة داخل النفوس على الرغم من صعوبات الحياة...

فجأة شعر الرجل بأن كل ما حوله يدور كعجلة بخارية، واسوَّدت الصورة في عينه، فسقط مغشياً عليه، مرت بضع ثوانٍ كأنها سنوات، وعم الصمت المكان، استفاق هذا الرجل ليجد كل ما حوله فراغ، لم يعد لبيوت الحي، والأشجار وجوداً، حتى عم محمود قد اختفى... أين عم محمود؟ وأين الجيران؟ بل أين البيت؟

حتى الآن لم يفهم الرجل أي شيء، فهرول إلى بيته، ووقف في ذهول أمام ركام، من المفترض أن هذا هو مكان بيته، لكن لا يوجد أي ملامحٍ تدل على ذلك، فتعجب متسائلاً "هل دخلت حيًا آخر؟ لكنني واثقٌ أن هذا هو الحي، لقد ألقيت لتوي السلام على عم محمود، والدعابات اليومية، لم أعد أفهم شيء!".

توجه إليه أحد المذيعين سائلاً:
- "ما هو شعورك بعد قصف الاحتلال لبيتك، والحي الذي تعيش فيه؟ وهل عثرت على أي من أفراد عائلتك؟".

صمت الرجل للحظات، وبدأ يتمتم بكلام غير مفهوم، ثم ظهرت على وجهه بعضٌ من علامات القهر، وثقل لسانه، وانفجرت عيناه، ثم تحسس جيبه متنهداً بعد أن أحس بشيء فيه، أخذ

المذيع يهدئ من روع هذا المسكين ، وتنهد الرجل في محاولة منه؛ ليتمالك نفسه متسائلاً:
- "هل رأى أحدكم زوجتي، وأبنائي؟ أليس هذا الحي هو حي الرمال؟"

رد المذيع في تردد:
- "بلى..."

انتفض الرجل، ونظر حوله صائحًا:
"إن عائلتي بأكملها تسكن هنا! أخوتي، وأخواتي، بنات، وأبناء عمومتي، أين هم!؟"
ربت المذيع على كتفه قائلاً:
- "نحتسبهم من الشهداء عند الله".

لم يتبقَ أي أحد على قيد الحياة من تلك العائلة المنكوبة سواه، أما منزله -الذي كافح طوال سنين حياته لبنائه- تفتت كل حجرٍ فيه إلى رماد، ولم يعد أي من معالمه موجودة في أقل من بضع ثوانٍ بعد قصف طائرات الاحتلال له، جلس ذاك المسكين المنهمك -الذي انتهى كل شيء بالنسبة إليه وتوقف الزمن من حوله- تصافح رأسه الأرض من شدة القهر متسائلاً بصوتٍ مسموع "هل أنا نائم؟"؛ ليجيبه عقله -الذي انفصل عن الواقع- "بكل تأكيد أنا نائم، هذا مجرد كابوس، عندما أستيقظ سيكون كل شيء على ما يرام!".

أغمض عيناه لثوانٍ معدودات مرت عليه سبعين عاماً عاشها بعد خسارة أبيه في مكان غير بعيد عن قرية الدوايمة في عام ١٩٤٨م، حيث حاول أبٌ فلسطيني أن يهرب ابنه الوحيد صاحب الأعوام الثمانية، والمتبقي من تسعة أبناء قُتِلوا جميعًا، عندما انكشف مخبأهم في الجبل.

لم يملك ذلك الأب المسكين مالاً يعطيه لفلذة كبده، ولم يملك وقتًا؛ ليودعه للمرة الأخيرة، كل ما امتلكه حينها خمس ثوانٍ أشار فيها إلى طريق الهروب، ومفتاح دارهم القديمة الذي يسرد صداه سنينًا طويلة من الرعب، والظلم عاشه أبناء ذلك الوطن الجريح في ظل الإرهاب الصهيوني، إن هذا المفتاح شاهدٌ على سنوات من الإبادات الجماعية، والمجازر، والتهجير.

لن يفهم أيٌّ منا معاناة هذا المقهور إلا إذا عاش في الفترة ما بين ١٩٢٠م، و١٩٤٨م في فلسطين العربية، في تلك الفترة انتشرت فرق البالماخ، والتي تطورت لاحقاً إلى عصابات الهاجاناه، ووصل عددها إلى ١٠٠ ألف مجرم، وإرهابي، ولم يقتصر التنافس على قتل المدنيين العزل بين الهجاناه، بل تكونت عصابات أخرى مثل إرجون، وشتيرن، وغيرهم من الإرهابيين الذين ارتكبوا المذابح في حق الشعب الفلسطيني العربي المحتل الأعزل.

تخيل أنك فلسطيني/ة من بين ٧٠٨ فلسطيني يعيش في قرية دير ياسين -التي أقيمت على أنقاضها جفعات شؤول- يوم ٣٠ جمادى الأولى ١٣٦٨ الموافق للعاشر من أبريل ١٩٤٨م.

بينما تنام بأمانٍ في بيتك، وأنت إنسانٌ مسالم أعزل اقتحم مسلحون قريتك بأعداد ضخمة على رأسهم مناحم بيجن، وألقوا القنابل يدوية في كل منزل من بينهم منزلك، وأنت نائمٌ فيه مع أسرتك، وسقط السقف على رؤوسكم، وفتحوا النيران على الجميع دون تمييز بين طفلٍ أو بالغٍ، أو رجلٍ، وامرأة، وقتلوا ٣٦٠ فلسطينياً دون رحمة.

حتى أن وصف أحد المراسلين الذين عاصروا تلك المذبحة تخطى حدود تخيل العقل البشري، والذي قال:
«إنه شئ تأنف الوحوش نفسها عن ارتكابه لقد أتوا بفتاة، واغتصبوها بحضور أهلها، ثم انتهوا منها، وبدأو بتعذيبها، فقطعوا نهديها، ثم ألقوا بها في النار».

كل جرائم الحرب تلك لم تتوقف، فهناك بلدة الشيخ، والطنطورة، وغيرها من المذابح المنسية كمذبحة الدوايمة التي أصيب التاريخ فيها بمرض الزهايمر كأنها لم تحدث، لولا وجود شاهد عيان أحدهما فلسطيني، وآخر صهيوني.

لم يستطع الأخير ش. كابلان التكتم على تلك الجرائم، وسجل شهادته في رسالة وجّهها إلى إليعزر بري محرر الصحيفة

الناطقة باسم حزب مبام "عال همشمار"، في ٨ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٤٨م أي بعد ٩ أيام من وقوع المذبحة، وعلى ذكر بعض الجرائم في رسالته:

- "لم يكن هناك قتال أو مقاومة في الدوايمة، قتل الفوج الأول من المهاجمين ما بين ٨٠ و ١٠٠ عربي، وقاموا بتحطيم جماجم الأطفال بواسطة العصي، ثم قام فوج ثانٍ بمحاصرة مَن كانوا في بيوتهم، واستجلبوا خبراء متفجرات قاموا بتفجير المنازل على رأس من فيها".

وروى الجندي كيف أن امرأتين مسنتين وضعتا في أحد المنازل وأمر أحد القادة زارع ألغام بتفجيره، وعلى الرغم من رفض زارع الألغام تنفيذ الأمر، فإن العملية نُفذت.

أكمل الجندي في رسالته:

- "هناك امرأة كانت قد أنجبت حديثاً، استخدمها الجنود لتنظيف الفناء الخلفي؛ حيث كانوا يتناولون الطعام قبل أن تُقتل مع طفلها، وتم قتل ٧٥ مسناً كانوا في المسجد لتأدية صلاة الجمعة، وهناك ٣٥ عائلة هربوا إلى الكهوف، لكن اكتشف أمرهم، واخرجتهم العصابات على هيئة صفوف، وبدأوا بإطلاق النار عليهم حتى قتلوهم جميعاً إلا أحد الأطفال.

استفاق صاحبنا المسكين من غيبوبته عندما ربت المذيع على كتفه مواسيًا، ومذكرًا إياه بآيات من القرآن الكريم عن الشهادة، والصبر، فرفع العجوز رأسه، وتحولت نظرات عينيه الدامعتين

-اللتين يملأهما القهر- إلى نظرات العزيمة، وتمالك نفسه في جلدٍ لم أرَ له مثيلاً في حياتي قائلاً:
- "لن أنسى ابتسامة زوجتي، وقبلة ابنتي كل صباح، وحلم ابني صاحب السنوات العشر الذي يتمنى أن يكون كوالده طبيباً يشفي المرضى؟ وأخوتي، وأبناء عمومتي...

لقد تم محو عائلة بأكملها، لم يعد هناك من يحمل اسم تلك العائلة غيري! أنا طبيب متقاعد كنت أعمل بمشفى المعمداني، وذهبت إلى هناك؛ لأساعد الجرحى، فالمشفى تستقبل مئات الشهداء أغلبهم من الأطفال، ولم يعد هناك مكان في ثلاجات الموتى لحفظ الجثث، ولا أكفان لدفنهم فيها، إن المصابين بالآلاف، لكن ما يفعله هذا الاحتلال يزيدنا صلابة، وقوة...

لن أغادر أرضي، وسأحارب حتى الموت، ولن أستسلم لهذا العدو الغاصب مهما فعلوا بنا سنصمد، ونقاوم حتى آخر نفسٍ، وسنحارب الرصاص بالرصاص".
ختم هذا الرجل المسكين حديثه بتلك الكلمات التي تعكس إرادة هذا الشعب الذي لا يقهر.

كم أشعر بالخذي، والعار بعد الاستماع لتلك الكلمات، إنني أنام على سريرٍ مريح من القطن، وسريره قاسٍ من الركام، أستيقظ على صوت منبهٍ بلاستيكي يصيبني بالصداع، ومنبهه دوي انفجار القذائف التي تصيبه بالصمم، وربما فقدان الحياة، إن حاله يعكس حالَ شعبٍ شقيقٍ بأكمله.

في الماضي كنا نسمع عن نساء ترملت بعد استشهاد أزواجهن في الحرب، وعن أطفال أصبحوا أيتاماً بعد موت أبائهم، وعن زوج مكلوم لفقدان زوجته، أو أحد أطفاله، اليوم قُتِلَ هؤلاء النساء، والأطفال، والرجال، وصرنا نسمع عن خبرٍ متكرر "الكل استشهد، ولا يوجد إصابات"، وصلت المأساة إلى محو عائلات بأكملها من السجلات.

يا ويل من تبقى على قيد الحياة في هذا الدمار بلا ماء، ولا طعام، ولا مأوى، ولا علاج، ولا كهرباء، من ينجو من نيران المدافع مات ألف مرة في اليوم بجحيم الفقدان، والقهر، والتهجير... أصبح الموت أهون عليهم من الحياة.

في اليوم السابع من أكتوبر نفذت المقاومة عملية شبه انتحارية لاختراق الجدار الحاجز بين غزة والكيان الصهيوني، وقتلت عشرات من جنود الأعداء، وأسرت عشرات منهم، وعدد غير معروف من المستوطنين في محاولة يائسة منهم لمقاومة ٧٥ عاماً من الاحتلال، والقتل، والتنكيل بآلاف الأبرياء، وهو حقٌ مشروع لصاحب الأرض أن يقاوم الاحتلال.

كانت هذه العملية صفعة لكيان متعجرف لطالما ادَّعى أنه كيان لا يقهر حدَّ إصابتنا بالصداع، وقد ثبت حقاً أنه كذلك عندما لم يستطع السيطرة على أرض الميدان أمام بعضٍ الأفراد

المسلحين بعتاد خفيف بدائي للغاية يدوي الصنع في مواجهة "جيش نظامي لا يقهر".

خرج وزير دفاع هذا الاحتلال إلى العالم معلناً "إننا نتعامل مع حيوانات، لا ماء، ولا كهرباء، ولا طاقة، وسنغير من خريطة الشرق الأوسط"، تصريح يعكس جريمة الحرب الواقعة أمام مرأى، ومسمع من العالم أجمع في حربٍ دعائية تبرر قتلهم، وتقلل من قيمة حياتهم، أي مجرم حرب هذا؟

خرج بعد ذلك رئيس وزرائهم يزعم أن هناك أطفالاً تم ذبحهم، ونساءاً اغتصبتهم المقاومة، وهو ما لم يحدث بكل تأكيد، وتم تكذيبه لاحقاً في عديد من التقارير، لكن بعد فوات الأوان، وحدثت الضجة بالفعل في المجتمع الغربي، وكانت الدعاية تبرر ما ارتكبته اسرائيل لاحقاً، والغريب أن العالم لم يتغاضَ عن كل المجازر، والجرائم التي ارتكبتها اسرائيل طوال ٧٥ عاماً فحسب، بل شارك بطريقة أو بأخرى في قتل الفلسطينيين سواء بالدعم المعنوي، أو تطور الأمر إلى الدعم العسكري.

لأن الغرب يتعامل مع القضية بمبدأ "قتل امرئ في غابة جريمة لا تغتفر وقتل شعب آمن بأكمله مسألة فيها نظر"، تسارعت أغلب حكومات الدول الغربية إلى دعم الذئب، وإلقاء اللوم على الشاة، كيف لا تسلم تلك الشاة نفسها إلى مفترسها دون مقاومة؟

اليوم خلعت كل الذئاب رداء الحملان التي لطالما تنكرت تحته، وادَّعت أنها منارة السلام، والحقوق، والإنسانية، وبدون أي مبرر منطقي أرسلت الولايات المتحدة حاملتي طائرات، وذخائر، وصواريخ، كما أرسلت بقية الدول الغربية الأخرى المدمرات، والبوارج والطائرات، وعتاداً لا حصر له، وسخرت كل إمكانياتها تحت تصرف هذا الاحتلال دون تحديد أي سقفٍ لهذا الدعم.

ما الذي لا يملكه الاحتلال ليقتل المدنيين العزل؟ إنهم يملكون الأسلحة المتطورة بكميات هائلة، واستخدموها لعقود في قتل الأبرياء، وتدمير البيوت، وقصف بمدافعه، وطائراته، ودباباته شعباً يقاومه بالحجارة! إنها إبادة جماعية بكل ما تعنيه الكلمة من معنى، ومحاولة تصفية شعب بأكمله!

هناك رضع أبرياء لا يفهمون معنى الحرب تمزقت أجسادهم إلى أشلاء، ولا يفهمون معنى السلام، بل لا يفهمون معنى الحياة، ولا يستطيعون التفريق بين العدو، أو الصديق..

تعالت أصوات إحدى الأمهات أمام الكاميرات "ماتوا جعانين"، وآخر يجمع أشلاء أطفاله المتناثرة؛ ليدفنهم، ويتمتم بكلمات غير مفهومة من هول الفاجعة، وأخرى تعمل ممرضة استشهد زوجها أثناء عملها، وأمٌ أخبرها الطبيب في مستشفى المعمداني أن هناك شعاعاً من الأمل بين كل هذا الضجى لإنقاذ حياة طفلتها البريئة، فتركته لمدة لا تزيد عن خمس دقائقٍ؛ لتبحث

عن طعامٍ، فصغيرتها جائعة منذ البارحة، وعندما عادت لم تجد صغيرتها، أو الطبيب، أو المشفى، لم يعد هناك أي من مظاهر الحياة في أحياء بأكملها، لم يسلم من قصفهم البشر، أو الحيوانات، أو النبات، أو الجماد.

كل شيء تم محوه بالفوسفور الأبيض المحرم دولياً، ومئات الأطنان من المتفجرات، والقذائف، ولم يسمحوا بدخول أي من المساعدات الإنسانية، في حصارٍ لا يقل وحشية عن حصار الرومان لقرطاج، إنهم يريدون محو دولةٍ بأكملها من الخارطة!

لم يتوقف الأمر عند القتل، أو التشريد، أو التهجير، بل حتى الكلام محرم على الفلسطينيين، وداعميهم، ليس من حق المقتول أن يعترض على وحشية قاتله، أو يصف شعوره، أو يبكي، أو يسرد قصته، لقد جندوا كل مواقع التواصل الاجتماعي الغربية، ودشنوا قنوات الأخبار الشهيرة، وكموا أفواه الضحايا، واحتكروا الآراء، وحذروا المنشورات، وقيدوا انتشار أي وسمٍ يتعلق بفلسطين، واشترطوا الاعتراف باسرائيل للحصول على بعض الجنسيات كالجنسية الألمانية، في حقيقة الأمر نحن لا نرغب في جنسياتهم، ولا نرغب في أي شيء يتعلق بهم.

لطالما سمعنا بكاءهم، وعويلهم حدَّ الصداع في حديثهم عن محرقة اليهود، أو "الهولوكوست"، اليوم نحن نشهد هولوكوست آخر، والغريب أن من احترق بنار الماضي يحرق بها الآن، إن هذه الصدمة لا يمكن أن يتعافى منها العالم بسهولة، وستترسخ

تلك الفاجعة في أذهان الأجيال المعاصرة، وستُكتَب صفحات التاريخ بدماء الأبرياء؛ لتكون وصمة عار على جبين الإنسانية، والتاريخ المعاصر.
جميعنا نعلم كيف نشأ هذا الكيان الصهيوني الظالم، وكيف اغتصب بوحشية أراضينا الفلسطينية العربية منذ عام ١٩٤٨م حتى الآن، لكن ما يحدث الآن أمرٌ يفوق في وحشيته حدود العقل البشري في ظل صمتٍ عربي، ولا يتوجب عليَّ لوم بقية الدول؛ لأن أصحاب القضية اتخذوا الصمت رداً، فكيف نطالب الآخرين بالدفاع عنا؟

في حقيقة الأمر دافعت مصر، وبعض الدول عن فلسطين، وأولهم جنوب أفريقيا، وقطعت بعض الدول الأخرى علاقاتها باسرائيل، بينما لا يزال بعض الدول العربية صامتة دون حراك، والمجتمع الدولي يتعامل بمبدأ: "قتل امرئ في غابة جريمة لا تغتفر، وقتل شعب بأكمله مسألة فيها نظر".

عزيز القارئ، أعلم أن المشهد العام مروعاً للغاية، ولا تتقبله العقول، ولا تتحمله الضمائر، لكننا لا نملك حالياً أي شيء غير الدعاء، والدعم المعنوي، والمساعدات إن استطعنا تمريرها إلى الأخوة الفلسطينيين، ومنع التهجير إلى سيناء بشتى الطرق؛ لأن في ذلك ضياع للقضية، وتفريغ لمضمونها.

إن في هذه الكارثة دروسًا يتوجب علينا تعلمها، وأمورًا يجب إصلاحها، أهمها أن العقلية التي نتعامل بها مع القضية

الفلسطينية يتوجب علينا تجديدها بما يتناسب مع العصر، فلا يتوجب علينا تجاهل أهمية مناقشة إعلامنا للقضية بالطريقة التي يفهمها المواطن الغربي، والتي تختلف كل الاختلاف عن مناقشتها مع المواطن العربي الذي يعي جيداً تاريخ الصراع، فنحن لا نعيش وحدنا في هذا العالم.

على المستوى الشأن الداخلي الفلسطيني أصبح توحيد الصفوف، وتجديد دماء المقاومة، والحكومة أمورًا ملحة؛ ليتحلى متخذو القرار في فلسطين بفكر، ولغة جديدين يتناسبان مع العصر الحديث، فالقضية يجب ألا تقتصر على قوقعة القومية العربية، أو العقيدة الإسلامية، أو رقعة جغرافية محدودة، بل يجب أن تتوسع لتصبح قضية كل إنسانٍ حر في هذا العالم الشاسع.

أما على المستوى الإقليمي فهناك أمورٌ كثيرة تحتاج إلى التصحيح، فالعرب بحاجة إلى ترميم تراثهم، وتجديد فكرهم كما يجدد الثعبان جلده، وإصلاح هذا الشرخ المتوغل في جسد الأمة، والاتحاد بعد تهيئة الدول اقتصاديًا، وفكريًا، وسياسيًا..إلخ، وقد يحتاج ذلك إلى سنوات، فقد اختلف حال الدول، وظروفها، وتطورها، ونسي البعض القضية، وتغاضى البعض الآخر عنها، وأغمض البعض عيونهم؛ لتهدأ ضمائرهم.

من الناحية الإعلامية أصبحت برمجة، وترويج مواقع تواصل اجتماعي عربية ضرورة قصوى؛ لتصبح منابراً نناقش من خلالها بحريةٍ، وبصوت عالٍ مسموعٍ دفاعاً عن قضيتنا

القومية، والدينية، والتاريخية، الإنسانية دون قيودٍ، أو حذرٍ من العدو، بل ونتحكم نحن في المحتوى المنشور عليها، والحقائق التي لا نستطيع نشرها على مواقعهم.

عزيزي القارئ، إن العدو يمتلك بين يديه عديداً من الأدوات ابتداءً من السلاح المتطور إلى الدعاية، ومما لا شك فيه أن المعارك الإعلامية أصبحت هامة، ومؤثرة للغاية في اتخاذ القرارات، والحصول على الدعم العالمي، ويبقى الدرس الذي أثبته التاريخ في حرب السادس من أكتوبر ١٩٧٣م المجيدة، وسيظل يثبته كما حدث في السابع من أكتوبر ٢٠٢٣م أن هذا العدو فقاعة إعلامية، وكيانٌ هشٌ للغاية.

علينا أن نعد مشروعاً قومياً، وخطة عربية شاملة متوسطة، طويلة الأمد لسنوات قادمة، ويجب أن يكون لدينا خطة مشتركة لكيفية التعامل مع نتائج الحرب الدائرة، والمتغيرات واردة الحدوث، وأن نتحد، ونعتمد على أنفسنا -نحن العرب- في صناعة كل شيء من الإبرة إلى الصاروخ؛ لأن حقوق المستضعفين لا يدعمها أحد، ودرس اليوم أن هذا العالم يحكمه قانون الغاب، وإن لم نفتَرِس، فسوف نُفتَرَس.
أخي، وأختي لا يزال الأمل موجودًا في جيب كل فلسطيني، فمفاتيح الديار باقية؛ ليفتحوا بها أبواب النصر، والحرية.

بين تحديات الأمس واليوم

"لكم بجميع البلاد معتبر، وعن عزمنا مزدجر، فاتعظوا بغيركم وأسلموا لنا أمركم، قبل أن ينكشف الغطاء، فتندموا..."، كلمات هدد بها هولاكو مصر في رسالته إلى قطز، والذي ختمها ببعض الكلمات التي تزلزل آذان مستمعيها، وترجف القلوب "فلا تطيلوا الخطاب، وأسرعوا برد الجواب، قبل أن تضرم الحرب نارها، وترمى نحوكم شرارها...".

لم يختلف خطاب اليوم عن خطاب الأمس، ولم تكن مخاطر الأمس بأقل شدة من مخاطر اليوم، اتفق هولاكو وترامب على لغة التهديد، والوعيد في التعامل مع خصومهم، وحتى حلفائهم لامتلاكهما قوة عسكرية ضخمة، لكن للأسف كليهما جهل، أو ربما نسي لماذا سميت "القاهرة" بهذا الاسم...

عندما هدد التتار مصر -وكان تهديدهم وجوديًا للعالم أجمع لا محض ضغوطٍ قد تنتهي بفرض عقوبات- جاء الرد بما رأوه لا ما سمعوه في معركة عين جالوت التي كانت معركة محورية في التاريخ العالمي، وكتبت مصر السطور الأخيرة من قصة التتار الذين كانوا يشبهون أعداد جيوشهم برمال الصحراء؛ لتختم عهدًا من الظلم، والطغيان، والخوف كما أنهت عهودًا من قبل، وعهودًا من بعد التتار.

منذ أيام طرح الرئيس الأمريكي دونالد ترامب مقترحًا بتهجير الفلسطينيين من غزة إلى مصر، والأردن، ظن ترامب أن السياسة المصرية المتزنة، والحكيمة يمكن التأثير عليها، وتغييرها ببعض الضغوط، لكنها في حقيقتها سياسة تتسم بالحكمة، والتريث، فمصر القوية على مدار تاريخها لم تكن سياساتها يومًا عدائية، ولطالما اتسمت بالرغبة في السلام، والمحافظة على الاستقرار في محيطها الجيوسياسي، لكن إذا فُرِضَ عليها غير السلام فالتاريخ خير شاهدٍ على قدرة مصر، وتأثيرها السياسي، وقوتها العسكرية بداية من مواجهة التتار، والصليبيين إلى نصر أكتوبر ١٩٧٣م، وحتى يومنا هذا،

وستظل قوة إقليمية وعالمية مؤثرة، فهي تمتلك مفاتيح السلام، والاستقرار في منطقة الشرق الأوسط.

ارتبط السلام بمصر ارتباطًا وثيقًا على مر العصور، فهي تمتلك من الخبرات السياسية التاريخية المتراكمة، والمتوارثة ما يجعلها تحل أغلب أزماتها بشكل سلمي، ولطالما كانت القضية الفلسطينية هي الشاغل الأكبر للساسة المصريين، والسياسة الخارجية، ومسئولية تاريخية تحملها القاهرة على عاتقها مهما أثقلت الأزمات الأخرى كاهلها.

رفض الرئيس السيسي اقتراحات ترامب بكل حزم، وحسم، وقد تحدث بلسان حال جموع الشعب المصري من تضامن مع الشعب الفلسطيني الشقيق، وضمان لحقوقه التاريخية.
لقد فرضت علينا الأزمة الراهنة التصدي للمخططات الصهيوأمريكية، والتي لا تختلف خطورتها عن تتار الماضي، لكن مصرنا الحبيبة لا تفهم لغة التهديد، أو القوة، أو الأمر الواقع، فهي على مر العصور وباختلاف التحديات قادرة -إن شاء الله- على عبور كل المحن، والشدائد.

يتوجب علينا جميعًا نحن المصريين بوجه خاص، والعرب بوجه عام أن نقف صفًا واحدًا خلف مصر، والرئيس السيسي، وأن ندعمه في كل قراراته المصيرية، والمحورية في تاريخ الصراع العربي الصهيوني ضد التحديات، والضغوط، وربما التهديدات الأمريكية المحتملة، والظالمة مهما كلفنا الأمر.

عند النظر، والتفكير من زاوية أخرى، فأغلب الظن أن الإدارة الأمريكية تعي جيدًا منذ البداية الرفض المصري القاطع في هذا الشأن، وأن هذا المقترح غير العادل لا يمكن بأي حال من الأحوال تنفيذه، هنا يطرح السؤال نفسه لماذا إذًا طرح ترامب هذا المقترح غير العقلاني في هذا التوقيت غير المتوقع؟ وهل حقًا يظن أن من تشبثوا بأرضهم رغم قصف القنابل سيتخلوا عنها بعد وقف إطلاق النار؟

إذا صحت تلك الفرضية ففي رأيي -الذي يحتمل الخطأ قبل الصواب- قد يستغل ترامب ورقة التهجير في الوقت الحالي؛ ليضغط بها لاحقًا أثناء تفاوضه في بعض الملفات الأخرى التي تخص الشرق الأوسط.

لقد اعتدنا منه افتعال المشاكل من العدم؛ ليستغلها، ويستخدمها كأوراق للضغط، والتفاوض، وهو بكل تأكيد ما تعيه القيادة المصرية الحكيمة التي حذرت من مخطط التهجير، ووضحت خطورته منذ بداية أحداث ٧ أكتوبر، ووضعت في اعتبارها مسبقًا كل الاحتمالات، والتحديات متمسكةً بالحقوق، وبالثوابت، ورافضةً للظلم.

عزيزي القارئ، في النهاية تتبدل الأيام، وتتغير المصالح، وتتوالى الشدائد، وتحيا مصر الصامدة حصن العرب المنيع، وتظل قاهرتنا قلب العروبة النابض.

هل تبكي روما من جديد؟ قراءة في تحولات السياسة الأمريكية

بعد الحرب العالمية الثانية، وبعد انهيار الاتحاد السوفييتي أشرقت أمريكا شمسًا في كبد السماء؛ شمسٌ تدور في فلكها الأمم، وتقتبس من ضيائها السياسات والاقتصادات العالمية.
كانت حقبة يُقاس فيها كل شيءٍ بالدولار، الذي شكَّل أكثر من ٨٠٪ من التعاملات الدولية، وأصبح عملة الاحتياط العالمي (٥٨٪).

بلغت حصة الولايات المتحدة حينها نصف الناتج العالمي، حتى غدت المؤشر الذي يُقاس عليه ازدهار الاقتصاد العالمي، أو ركوده؛ فإذا كَسَفَ الاقتصاد الأمريكي خيَّم على الكوكب خريفٌ من الركود، وإن انجلى كسوفه، أزهرت الأسواق، وكان الربيع الاقتصادي المنشود، وبين كسوفها وسطوعها كانت السياسة العالمية تتمحور حولها كما تدور الكواكب حول الشمس.

اليوم تبدو السماء ملبدة بالغيوم؛ فالمنافسون يتقدمون بوتيرةٍ متسارعةٍ لم تكن في الحسبان... الصين، وروسيا، والهند، وحتى أوروبا، فهل بدأت شمس الولايات المتحدة الأمريكية بالأفول؟

مما لا شك فيه أن اقتصاد اليوم ليس كالأمس؛ فعلى الرغم من بقاء الولايات المتحدة الاقتصاد الأكبر عالميًا بناتجٍ يتجاوز ٢٧ تريليون دولار سنويًا، فقد تراجعت حصتها من الناتج العالمي إلى نحو ٢٥٪. ربما لا يعكس هذا التراجع ضعفًا في الاقتصاد الأمريكي بقدر ما يُظهر نموًا أسرع لدى الآخرين، خاصة الهند والصين.

لا تزال الولايات المتحدة تمتلك أدوات التفوق الاقتصادي؛ فالدولار يحتفظ بهيمنته على ٨٠٪ من التعاملات الدولية، وشركاتها التقنية الكبرى مثل جوجل، وأبل، ومايكروسوفت، ونفيديا تظل عصب الاقتصاد الرقمي العالمي، إلى جانب شبكة

من التحالفات والعلاقات التاريخية التي تمنحها ثقلًا لا يُستهان به.

بمعنى آخر، تراجع النسبة لا يعني تراجع النفوذ، بل اتساع دائرة المنافسة.

عسكريًا لا خلاف على أن الولايات المتحدة تمتلك أقوى جيشٍ في العالم، وأضخم ميزانية دفاع في التاريخ تتجاوز ٨٥٠ مليار دولار سنويًا، وتتفوق على خصومها في نوعية التسليح والتقنيات؛ فهي تمتلك ١١ حاملة طائرات متطورة، بينما تملك الصين اثنتين، وروسيا واحدة فقط.

تُحاصر خصومها بحزامٍ من القواعد العسكرية والأساطيل المتمركزة في أكثر من ٧٠ دولة، ويضمن ذلك لها الانتشار السريع، والتأثير العالمي شبه المطلق.

أما على الصعيد التكنولوجي، فما زال التفوق الأمريكي واضحًا في مجالات الفضاء، والذكاء الاصطناعي، والطائرات الشبحية، وأنظمة الدفاع والرصد المتقدم، والطاقة النووية، لكن تحاول الصين تقليص الفجوة عامًا بعد عام، خصوصًا في مجال الصواريخ فرط الصوتية، والتقنيات الذكية.

مع صعود تكتلات مثل "بريكس"، وعودة روسيا، ونهوض الصين، والهند، وأوروبا كقوى مؤثرة برزت فكرة التعددية القطبية بدلًا من الأحادية الأمريكية، وإن كانت الولايات المتحدة لا تزال ترفضها، إلا أنها مجبرة اليوم على التعايش معها -ولو مؤقتًا- بسبب الإرهاق الناتج عن الحروب، واعتماد العالم المتزايد على الصين...

هنا أدركت واشنطن أن السيطرة على كل شيء أمر مكلف، وغير فعال، فاتجهت إلى إدارة التوازن العالمي لا الهيمنة المطلقة؛ لتصبح محور التوازن بين تلك القوى، وبات المبدأ السائد في السياسات الدولية:

"إذا لم تستطع أن تتحالف مع أمريكا، فعلى الأقل تجنب الصدام معها."

ومع ذلك، تواجه الولايات المتحدة اليوم نزيفًا داخليًا لا يقل خطرًا عن أي خصمٍ خارجي، فالانقسام السياسي والاجتماعي بين الحزبين الجمهوري والديمقراطي بات جرحًا غائرًا في الجسد الأمريكي، وتفاقمت أزمة الديون التي تجاوزت ٣٥ تريليون دولار، واعتمادها الصناعي المتزايد على دولٍ منافسة في سلاسل الإمداد، إضافةً إلى تراجع الثقة بعد حروبٍ استنزفتها كالعراق وأفغانستان...إلخ.

كل ذلك جعل الولايات المتحدة أقل حرية في حركتها، وأقرب إلى دولةٍ كبرى تدير التوازن بدلًا من فرضه.

لقد تعاقبت إداراتٌ أمريكية برؤى متباينة؛ حيث رفع دونالد ترامب شعار "أمريكا أولًا"، وآمن أن القوة الاقتصادية والصناعية والعسكرية هي ضمان الهيمنة، فتجنب الحروب الخارجية، وركز على الداخل، وقد نجح جزئيًا، لكن نتج عن ذلك خلافاتٍ مع الحلفاء.

أما جو بايدن، فاختار نهج التحالفات، معتبرًا أن توسيع نطاق التحالفات هو طريق التفوق، وقد نجح جزئيًا أيضًا، لكنه لم يهتم بالداخل.

غياب التوازن بين هاتين الرؤيتين جعل السياسة الأمريكية الخارجية متأرجحة، وغير مستقرة، فحتى الحلفاء، باتوا يتعاملون مع الولايات المتحدة وفق المدة المتبقية للرئيس في البيت الأبيض، لا بناءًا على الثقة الدائمة كما في الماضي.

يبقى السؤال الكبير:

هل تفقد الولايات المتحدة هيمنتها؟

هناك ثلاثة احتمالات... إما أن تظل أمريكا الشمس التي تتوسط السماء، أو يسطع ضوءٌ آخر من الشرق فيصبح للنهار أكثر من

فجر، أو تغرب الشمس الأمريكية لتشرق مكانها شمسٌ آسيوية "جزئيًا"، فالصين تواجه كثيرًا من التحديات الداخلية، والاقتصادية كالديون، وغيرها.

يظل الاحتمال الأقرب إلى الواقع هو أن أمريكا لا تنهار، بل تتكيف مع التغيرات العالمية منتقلةً من مرحلة الهيمنة المطلقة إلى مرحلة القيادة التنافسية، وقد تكون هذه المرحلة مؤقتة.

الولايات المتحدة اليوم تقف عند مفترق التاريخ، والساسة الأمريكان في حيرة بين رغبتهم في الاحتفاظ بالأحادية، أو أن تصبح أمريكا أحد أعمدة نظام جديد متوازن؛ إن اختاروا الغطرسة والتسلط، فامبراطوريتهم حقًا تملك أدوات التفوق، والهيمنة، والتطوير، والابتكار لديهم أسرع من أي دولة أخرى، وحتى الآن تظل هي الدولة الوحيدة في العالم القادرة على التأثير في كل قارة، وكل ملف عالمي، وهو ما يمكنها لاحقًا مع اتباع سياسات صحيحة من استعادة هيمنتها، أو بالأصح "الاحتفاظ" بها، لكن في هذه الحالة تبقى الحقيقة التاريخية عاجلًا أو آجلًا قد تستيقظ أمريكا يومًا لتجد أن المدار قد تغيَّر، وأن الشمس أشرقت من الجانب الآخر من العالم.

قارئي العزيز، لا بداية بدون نهاية، ولا تشرق الشمس دون أن تغرب، ولعلي لم أجد خاتمة أبلغ من قصة سكيبيو إيميليانوس

القائد الروماني الذي دمر مدينة قرطاج عام ١٤٦ ق.م عن بكرة أبيها، وأصبحت "الهيمنة المطلقة" لروما دون منازع، لكنه حين رأى المدينة رمادًا لم يتفاخر بالنصر، بل بكى؛ لأنه رأى الحقيقة، فقال كلمته التي تجاوزت حدود الزمان:

- "سيأتي يومٌ على روما، كما أتى هذا اليوم على قرطاج".

البوابات الخمس للعالم الإسلامي... رؤية إستراتيجية شاملة

في زمنٍ تكالبت فيه الأمم على أمتنا، وتشرذمت أواصرها، وتفتت خريطتها على صخور الانقسام يقف المسلمون اليوم على حافة مصيرهم؛ لا لأنهم فقدوا عناصر القوة، بل لأنهم فقدوا القدرة على جمعها في إطارٍ واعٍ جامع.
ننتظر معجزةً قبل أن يغادرنا التاريخ، ويُخيَّل للناظر منا خلف جبال الواقع -التي تحجب الرؤية- أن الأمل قد انطفأ، وأن عجلة التاريخ قد تجاوزتنا منذ زمن طويل.

غير أن سؤالًا عميقًا يفرض نفسه:

هل تموت أحلام الأمم حين تُهزَم؟ أم حين تعجز عن إدراك مواضع قوتها؟

وسط هذا المشهد المضطرب تبرز خمس دول إسلامية بوصفها نقاط ارتكاز جيوسياسية حاسمة، وتمثل - مجتمعة - ما يمكن تسميته بالبوابات الخمس للعالم الإسلامي؛ لا باعتبارها دولًا متجاورة، بل باعتبارها أعمدة توازن، وجسور للعبور، وحلقات وصل بين الكتلة الإسلامية المركزية، ومجالاتها الحيوية الاستراتيجية.

الحجاز / السعودية: بوابة الانطلاق والشرعية

بعد توحيد كلمة الجزيرة العربية على دعوة الإسلام، ورسالة نبي الله محمد -صلى الله عليه وسلم- تحولت الجغرافيا إلى قدر والتاريخ إلى هوية، وفُتِحَ العالم بالسند العقدي، ومنها انطلقت الرسالة، وتشكلت دولة الخلافة الراشدة، وكانت الحجاز البوابة التي خرجت منها الجيوش الأولى إلى الشام والعراق وفارس، فهي منبع الشرعية، ويستمد كل توسع إسلامي مشروعيته من مكة والمدينة.

اليوم تعد المملكة العربية السعودية القلب الجيوسياسي والديني؛ حاضنة مقدسات الأمة، ومحور الجزيرة العربية، وصاحبة

الرافعة النفطية الإستراتيجية، والمشرفة على أهم الممرات المائية في الخليج العربي والبحر الأحمر.

مصر: بوابة الغرب ومفتاح الفتوح

منذ أن فتح عمرو بن العاص -رضي الله عنه- مصر لم تكن إقليمًا تابعًا، بل مفتاح الفتوح، وبوابة انطلقت منها الجيوش إلى إفريقية والأندلس، وبها استقرت الخلافة في مواجهة البيزنطيين، ومنها حُسِمَت معارك مصيرية للأمة كعين جالوت.

كانت مصر ولا تزال ممر السيطرة، والسيادة لم تكن يومًا ساحة الصراع؛ حيث تمثل البوابة الغربية للأمة، فهي سيدة أهم الممرات المائية العالمية قناة السويس، وحارسة الحوض الشرقي للبحر المتوسط، وعمق إفريقيا الشمالي، وقلب معادلات الأمن البحري، والطاقة، والتجارة الدولية، وأزهر المسلمين، وقلعتهم الحصينة على مدار التاريخ.

بلاد فارس / إيران: بوابة الشرق الحضاري

حين فُتِحَت فارس، لم تُهدَم فيها الحضارة، بل أُعيد توجيهها، فدخل الفرس في الإسلام، وكانوا من أعمدة دولته علمًا وإدارة وفلسفة، ومن خراسان خرجت أعظم التحولات السياسية والفكرية في التاريخ الإسلامي.

جمهورية إيران الإسلامية تمثل اليوم البوابة الشمالية الشرقية والوسطى؛ قلب الهضبة الإيرانية، والوصلة البرية بين بحر قزوين والمحيط الهندي، والمشرفة على الخليج العربي ومضيق هرمز شريان الطاقة العالمي، مع موارد طبيعية وبشرية ضخمة.

الأناضول / تركيا: بوابة الشمال وأوروبا

بعد دخول الأناضول الإسلام أصبحت بوابة عبور لا مجرد أرض مفتوحة، منها خرج السلاجقة، ثم العثمانيون الذين فتحوا القسطنطينية.

من خلال تركيا انتقل الإسلام من آسيا إلى قلب أوروبا، فهي البوابة الشمالية والشمالية الغربية؛ جسر قاري بين آسيا وأوروبا، وسيدة الممرات المائية الحساسة "البوسفور والدردنيل"، وصاحبة قاعدة صناعية، وتقنية عسكرية متقدمة، ومفتاح القوقاز والبلقان.

شبه القارة الهندية / باكستان: بوابة آسيا العميقة

دخل الإسلام شبه القارة الهندية عبر السند، لا كغزو عابر بل كاستقرار حضاري طويل نتجت عنه واحدة من أكبر الكتل الإسلامية في العالم، أو ما يعرف اليوم بدولة "باكستان"، والتي تطل على المحيط الهندي، وتعد جسرًا بريًا حيويًا يربط العالم الإسلامي بالصين، وآسيا الوسطى، وتمثل اليوم القوة النووية

الوحيدة في العالم الإسلامي مع كتلة بشرية هائلة، وعمق استراتيجي بالغ الأهمية.

لم تكن تلك الدول يومًا أطرافًا، بل مفاصل يرتكز عليها التاريخ الإسلامي، ولم يكن فتحها غاية فقط، بل وسيلة لفتح ما وراءها، ولا تكمن أهميتها الوحيدة في ذاتها كدولٍ قائمة، بل في قدرتها على الربط والحماية والتمكين أيضًا.

اليوم تمثل هذه الدول الخمس مجتمعة نقاط ارتكاز جيوستراتيجية، وتشكل قوسًا جغرافيًا دفاعيًا يحيط العالم الإسلامي من تخوم الأطلسي إلى حدود الصين، وتملك – نظريًا – في زماننا الحالي كل مقومات القوة العظمى: السكان، الموقع، الموارد، العمق الحضاري، والقدرات العسكرية، وتربط هذه الدول بمواقعها المحورية الكتلة الإسلامية المركزية.

اليوم تعيد الجغرافيا طرح السؤال ذاته الذي طرحه التاريخ سابقًا إبان الخلافة الراشدة وما تلاها:

- "أمام هذا التماثل النادر في التكامل الجغرافي والوزن الديموغرافي والاقتصادي والعسكري، ألم يحن الوقت من منظور المصلحة القومية العليا المشتركة لدراسة إطار تعاون أمني دفاعي إستراتيجي مشترك يتجاوز التحالفات المؤقتة إلى

شراكات دائمة تصون استقلال القرار وتحقق الردع الشامل لهذه الأمة المكلومة؟"

ليس الحديث هنا عن حلم وردي، أو وحدة اندماجية سريعة، بل عن مشروع عقلاني تدريجي يستند إلى المنفعة المتبادلة، واحترام السيادة، وإدارة الخلافات لا إنكارها، والالتفاف حول كلمة واحدة "اللّٰه"؛ لنتحول من مرحلة الإدراك إلى القرار.

وفي الوقت ذاته يصطدم بجبال الواقع من عقبات سياسية، وتباين هيكلة النماذج الاقتصادية، وتفاوت التنمية، وضعف التبادل التجاري البيني، والاقتصادات الريعية، والخلافات الإقليمية المزمنة، وتناقض التحالفات الإقليمية والدولية، وصراع الزعامة، وتعدد مراكز الشرعية التاريخية، وغياب الثقة الأمنية، والانقسام المذهبي، والفكري، ناهيك عن لعبة الدول الكبرى، وممارسة الضغوط كالذرائعية القسرية الأمريكية، والبراغماتية الصينية، والخشونة السياسية الروسية.

لعل للخلافات الإقليمية المزمنة نصيب الأسد من تلك العقبات، فتنافس النفوذ التركي-الإيراني في العراق، وسوريا، والقوقاز، والتنافس السعودي-الإيراني على زعامة الخليج والشرق الأوسط، والذي وصل إلى حد الخلافات.

ولا تنسى الخلافات المذهبية، والإشكالات الحدودية الباكستانية-الإيرانية حول بلوشستان، وتباين المواقف من ملفات سوريا واليمن وفلسطين تعد أصعب تلك العقبات.

ربما تكون مصر هي الدولة الوحيدة القادرة على معالجة هذه الأمور؛ لأنها تنأى بنفسها عن كل هذه الخلافات، ولا تؤمن بالصراعات المذهبية، وقد استطاعت أن تتخطى خلافاتها السياسية مع تركيا، ويربطها بالجميع علاقات وطيدة.

إن صعوبة الطريق لا تعني استحالته، فبآلية واقعية متدرجة قد تستغرق عقدين من الزمان على الأقل – تبدأ ببناء الثقة، ثم التكامل الاقتصادي، فالتعاون الأمني، وصولًا إلى تحالف إستراتيجي – يمكن لهذا المشروع أن يتحول من فكرة إلى مسار حقيقي واقعي...

بداية من التبادل الثقافي، واتفاقيات أمنية محدودة، ومنتدى اقتصادي، وإنشاء منطقة تجارة حرة، وبنك تنمية مشترك، وشبكات الطاقة، وبنية تحتية عابرة للحدود، وربما سكك حديدية وصولًا إلى مركز استخباراتي مشترك، وتدريبات عسكرية مشتركة، وتوحيد معايير لوجستية؛ لينتهي بقيادة تخطيط مشتركة، وصناعات عسكرية متكاملة، وتنسيق سياسي أمني

عسكري مما ينتج عنه مجلس أمن إسلامي، فتكون نواة الاتحاد الإسلامي الكبير.

عزيزي القارئ، إن مشروع البوابات الخمس ليس حنينًا إلى الماضي، بل قراءة علمية للتاريخ والجغرافيا معًا، وهو مشروع القرن للعالم الإسلامي، ويحتاج إلى صبر، ووعي أجيال، والمَخرَج الحقيقي يكمن في التدرج الذكي، بالبدء بما هو ممكن، وتأجيل ما هو مستحيل، وبناء الثقة حجرًا فوق حجر، فالتاريخ لا يُصنَع بالقفزات المتهورة، بل بالخطوات الصغيرة الثابتة، والمتواصلة.

قد يبدو الأمر مستحيلًا في ظاهره، غير أن القرآن يلخص جوهر الطريق:

(إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً)

(وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا).

صدق الله العظيم.

"٨ قرون بين خوارزم وطهران"

إذا كانت عجلة التاريخ تدور فما أشبه اليوم بيومٍ حزين في عام ٦١٦هـ - ١٢١٩م؛ حيث كانت الدولة الخوارزمية - إحدى أعظم دول العالم الإسلامي - قائمةً، وصامدةً كحاجز استراتيجي، وسدٍ منيعٍ بين المسلمين وشرٍ كبيرٍ زاحفٍ إليهم من الشرق الأقصى، وأعماق آسيا.

امتلكت خوارزم جيشًا قويًا، وأعدادًا كبيرة من الفرسان، والجنود، وضُرِبَ بمدنها الأمثال كبخارى، وسمرقند، وجرجانية في التقدم، لكن فجأة... تبخر كل شيء!

في ظاهر التاريخ سقطت الدولة الخوارزمية تحت سنابك خيل المغول دون سابق إنذار، واجتاحوها بجيشٍ جرارٍ، ونارٍ لا تُطفأ، لكن بين سطور التاريخ كانت الدولة قد فرغت من عناصر الصمود، وانهارت قبل ذلك حين عُزِلَت عن محيطها، وخاضت صدامًا دون قراءة حقيقية لموازين القوة، وفي أروقة قصورها كانت هناك سلطة منقسمة، وقيادة مرتابة من جيشها، وجبهة داخلية غير متماسكة، ومدن تُترَك لتواجه مصيرها منفردة، وحتى الشاه انهار نفسيًا، فلم تخض جيوشه معركة حقيقية فاصلة، وحين جاء الطوفان لم تجد خوارزم يدًا تمتد إليها، ولا حليفًا يتحرك، ولا رمزًا يجمع الشتات، فسقطت سريعًا، وبلا وداع.

اليوم، تعيش إيران مشهدًا يذكر - في بنيته - بتلك اللحظة التاريخية، فهي دولة إسلامية قوية ذات مشروع إقليمي واضح، لكنها معزولة اقتصاديًا، ومُحاصَرة سياسيًا، ومستهدَفة إعلاميًا، ومستنزَفة في عدة ساحات خارجية، وجبهتها الداخلية غير متماسكة، واجهت حرب استنزاف طويلة الأمد تهدف إلى كسر الدور قبل احتلالها، وإضعاف قدراتها قبل سقوطها، وهو المنطق ذاته الذي سبق اجتياح المغول لخوارزم.

في بداية الأمر أرسل جنكيز خان كعادته بعثة دبلوماسية، ورسائل رسمية إلى السلطان محمد خوارزم شاه، تحمل مطالب، ومقترحات للتجارة، والسلام، ربما كانت هذه الرسائل تمثل فرصة لتسوية سلمية، أو على الأقل وقت كافٍ للمماطلة،

والاستعداد للحرب، لكن اعتبر السلطان ذلك تهديدًا، فأمر بقتل الرسل، والتجار، ومصادرة أموالهم، كان ذلك خطأ استراتيجيًا فادحًا، وأعطى المغول مبررًا ديناميكيًا، ناهيك عن المبرر التقليدي، أو الأخلاقي - وفق منظومتهم - للانتقام الكامل، فقتل رسلهم بمثابة إعلان الحرب، ودفاع عن النفس!

هذا التصرف المتهور حول التوتر من تهديد محتمل إلى حرب شاملة، ولم يعد لدى الشاه أي وقت، أو فرصة لتعزيز دفاعاته، وهو ما مهد لسقوط المدن الواحدة تلو الأخرى بدون أي معركة حقيقية فاصلة.

يرى البعض في توجيه ضربة إيرانية مسبقة على إسرائيل، والقواعد الولايات المتحدة في الشرق الأوسط فرصةً للضغط، أو لإظهار القوة، لكن في الحقيقة يمثل ذلك الأمر هديةً، ومبررًا للأمريكان لإسقاط النظام الإيراني الذي فقد حرية التصرف، ولديه ارتياب من الجيش، ولا خيار أمامه سوى الاعتماد على الحرس الثوري، فإيران اليوم معزولة، وبلا أوراق قوية فعالة، والوضع الداخلي متأزم، وفوضوي، وقد ينتج عنه انفلات أمني، كما لم تتعافَ الأذرع الإيرانية بعد، لكن أكثر ما يقيد متخذي القرار هو خوفهم من تدمير الجيش الإيراني نفسه، وخسارة كل شيء كما حدث في سوريا، والعراق من قبل.

في رأيي - الذي يحتمل الخطأ قبل الصواب - يحاول القادة الإيرانيون امتصاص الصدمة، أو على الأقل تأجيل المواجهة،

وربما الرد بضربة محدودة مباشرة إن استطاعوا لحفظ ماء الوجه، أو بطريقة غير مباشرة بواسطة أحد أذرعهم في المنطقة، لكن يبقى الاحتمال الأكبر هو الالتزام بالصمت على أمل أن يمر هذا التهديد الوجودي.

عزيزي القارئ، فقط تغيرت الوسائل؛ وحلت الطائرات والصواريخ محل الجيوش الجرارة، وأصبحت العقوبات أدوات الحصار الحديثة، لكن يبقى المنطق ذاته: تفكيك البيئة الإقليمية، ودفع الخصوم إلى العزلة الكاملة، واستنزاف القدرة على الفعل مع تحييد الحلفاء، وغياب الرمز الجامع، فتُترَك كلُّ دولة وحيدة؛ لتواجه مصيرها في العاصفة، ويصبح الانهيار مسألة وقت، فالدول لا تُهزَم حين تُستَهدَف، بل حين تُعزَل، فتتحول من فاعلٍ إلى مفعولٍ به.

هنا تتقاطع لحظتان من التاريخ؛ كما كانت خوارزم حاجزًا بين المغول والعالم الإسلامي يومًا، تعد إيران اليوم كفة ميزان الشرق الأوسط، والعقدة التي يسعى الغرب لتفكيكها قبل إعادة ترتيب الإقليم.
الحذر! الحذر! إذا انهار السد لن يتوقف السيل، وسيجرف الجميع، فتاريخ ما بعد خوارزم لم يقف عندها؛ إذ سقطت بغداد عاصمة الخلافة بعدها، وقُطِعَ رأس الأمة، ثم اجتاحوا بقية الجسد الإسلامي لولا صمود مصر.

اليوم يبدو المشهد متكررًا في منطقه، وأحداثه، فهناك دول تُستَنزف، وأخرى تُحارَب بالوكالة، ودول أخرى تُترَك معلقة بين الفوضى والارتهان، تشابهت المصائر وإن اختلفت الأسماء، والأزمنة.
لقد أخطأ المسلمون مرة حين خذلوا خوارزم، ورأى بعضهم في المغول خلاصًا من بطشها، فلم ينصروها، واليوم تحتاج إيران إلى الأمة، والأمة في أمس الحاجة إلى إيران قوية.

لم يعد التكامل بين الدول الإسلامية الكبرى خيارًا، بل ضرورةً كما ذكرت في مقالي السابق "البوابات الخمس للعالم الإسلامي"، فغاية الأعداء على مدار التاريخ واحدة، وهي منع قيام مركزٍ مستقل، وكسر أي مشروعٍ جامع، والخطر ليس سقوط دولةٍ واحدة، بل أن يتحول سقوطها إلى نمط مألوف، وتتساقط الدول الواحدة تلو الأخرى، وحينها تُستَبدَل السيادة بإدارة الأزمات، ويُعَاد تعريف الهزيمة بوصفها "وضعًا طبيعيًا"، وتُختَزل الأمة إلى جزر معزولة.

عزيزي القارئ، لو نطق التاريخ لصرخ فينا قائلًا:
"احذروا العزلة، فهي أول الهزيمة، وآخر ما تشعر به الدول قبل سقوطها، وإن كان اليوم دور أخيك فانتظر دورك في الغد".

النهاية